

علي الشريقي

الألواح التاريخية

جمع وتحقيق

موسى الكرياسي

صدر ضمن موسوعة الشريقي النثرية

بغداد 1988

الشرقي يقدم ألواح

يقولون من لم يتقدم تأخر، وانا اقول اننا ملفوفون بعاصفة من لم يتقدم فيها دفن. لقد جاء في اخبار الجواله حسنين باشا انه تجول في الصحراء الافريقية متنقلا من زاوية الى زاوية ومن واحة الى واحة وفي صحبته الاولاد والخريتون، وبيناهم في مسيرتهم والابل مشيها وئيد واذا بها تشتل مسرعة من دون ان يزعجا سائق او يركضها حاد ويسأل الباشا الاولاد عن المفاجأة فيقولون انها تشم العاصفة من بعيد فاذا هي مشت وئيدا دفنتها الرمال التي تسيل مع العاصفة.. انها تركض وتركض لتتخلص من الدفن، وفي اثناء المحاورة هبت العاصفة مزمجرة واتصلت الارض بالسماء ولكن سرعة السير خلصت ارجل الابل من ان يعوقها الرمل السائل ، وعندما اجتازت العاصفة ركبت الابل ونزل الراكب للاستراحة. ويطلب الباشا من الرفاق ان يوقفوه على بعير تواني حتى دفن فجاءوا به الى كثيب كشفوه عن بعير يابس وهو واقف وعليه حمله الثقيل.

فيا ايها الشباب الصاعد ان العالم في هبوب جارف وها نحن نشمه ونراه ونسمع دويه ، فاذا لم نتقدم راضين لا نكون قد تأخرنا فقط بل ندفن ونحن نرزع تحت الحمل الثقيل .

اما التمهيد فمن نافلة القول ترينا : ان الغرض الاعلى من كل ثقافة هو السمو بالانسان الى عالم الخير والحق والكمال سموا يستوعب كل ما في الحياة من رضى وطمأنينة، سموا مطردا يجعل كل جيل جناحا للجيل الذي يليه يحمله لقطع شوط من الطريق.

فهل أمنت هذه الغاية معاهد الثقافة العراقية من بيت أو مدرسة أو ناد ؟ نعم ان معاهد الثقافة عندنا ، وفي طليعتها المدرسة ، توفرت على تربية المدارك والنفس ولكن تعطلت عن تربية العاطفة، والعاطفة هي المظهر الانساني السامي وهي اعظم قوة كامنة في الانسان ، وكثيرا ما تغلبت على قواه الاخرى وقادتها حيث تريد ، ويؤسفني ان اقول ان النفس العراقية المهذبة لم تتعهد التربية فيها ناحية العواطف. بقي الانسان العراقي عند غرائزه لم يتفوق عن مقام الغرائز الى العواطف السامية ، فالعاطفة عندنا ضعيفة وهامدة ومطبوعة بطابع واضح من

الانانية ، وكيف نرجو ان يتحقق الكمال العراقي اذا بقيت ناحية العواطف على بلادتها هزيلة؟ بل كيف يتم الغرض من التربية اذا لم تصقل عاطفة النبل والنجدة، وعاطفة الرفق وعاطفة الاحسان وعاطفة الحب وعاطفة الالباء وغيرها من العواطف النبيلة؟

حقا ان المدرسة الجيدة لامجال فيها للعواطف، وبهذا النقص تأخرت عن المدرسة القديمة، اذ ان المدارس الدينية قديما كان فيها الشيء الكثير لتهديب العواطف وسموها لان الدين العربي من اقدس مقاصده التي تهيب الانسان الى الكمال، الترفع بالانسانية من مقام الغرائز الى مقام العواطف فالمدارس الدينية كانت تغذي هذه الجهة وتنميتها وتتعهدها بانجح الوسائل، ولكن اخيرا سفت المدرسة الدينية وقصرت في هذا الواجب فقد جف نميرها واصبحت اصلاحات جامدة على مجموعة لفظية لا تعطي الا علما صناعيا، وادبها ادب مدرسي ليس الا . وبقي العود الذي نوقع عليه نهضتنا ناقص الاوتار، واذا كان (زرياب) زاد في العود الوتر الخامس لتنظيم النغمات فاني اريد ان ازيد على العود الذي نضرب به نهضتنا وتر العاطفة الذي يملأ الحياة لذة وأملا .

ان بناء القومية المرتجاة يلزمه الاهتمام بما في تاريخنا من نبل وسمو ، اجل اننا في حاجة الى ذلك التاريخ المثمر المغدق ليقودنا الى الفضيلة، لقد كان في استغلال امجاد التاريخ الاثر الطيب لنهضات الامم كما نلمس ذلك، من نتائج كتبهم وما وضعوه لغرض البحث في مناهج الدراسة ، تلك المؤلفات التي كانت الاساس لبناء كيان الامة. اننا شعب يتطلع وبلاد تتطلع لتاريخ يجلو امجادنا، وان في تاريخنا ما يبعث الهمم ويثير الحفيظة ويستل منه خير المثل واذا كانت الكيمياء هي تفاعل لتكوين شيء جديد فالعواطف الكريمة هي كيمياء روحية تتفاعل لتخلق انسانا جديدا غير الانسان الهامد . ان في تربية العاطفة الكريمة خير غذاء للجيل الجديد واذا كان من انبل الاغراض في التاريخ هو الغرض القومي وما فيه من تثبيت اصول وتقاليد ولمع وامجاد، فكم في تاريخنا من تجمع وذخيرة للنبل. وكل ما احاول في رسالتي هذه ان يكون في السراج شيء من الزيت ينير الطريق للسالكين.

علي الشرقي

اللوحة الاولى

1921

الصلابة في المبدأ عند العرب

1 أبو ذر الغفاري

شخصية فذة قدمها التاريخ العربي بين الاحداث الخطيرة. لقد تنوعت التلمذة على منبر الرسول العربي، ذلك المنبر الذي اتصل بارواح الافذاذ فالفهمها وخاطب العقول الجبارة فثقفها. من مدرسة محمد (ص) ، حمل الهداة قبسا من النور المقدس وتخرجوا على المبادئ السامية. في ذلك المعهد العظيم الخصب، تخرجوا وكل فذ له اختصاصه ، وكان ابو ذر من اظهر الموسومين بطابع تلك المدرسة العالية، وكان له امتيازه واختصاصه. لقد مشى وحده بصراحة ولهجة نوه عنها النبي (ص) بالمأثور من حديثه : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء، ذا لهجة اصدق من ابي ذر .

حمل ذلك الصادق لواء المعارضة لامراء المسلمين الذين انكروا منهم الانحياز عن الديمقراطية العربية والاشتراكية الاسلامية الى الارستقراطية الممقوتة، والاختصاص بفيء المسلمين والثروة العامة حتى استحال المجتمع عن التسوية الاسلامية الى فريقين متباينين اغنياء مترفين وفقراء مكوددين، فثارت حفيظة أبي ذر وحمل لواء المعارضة عاليا بنقد لاذع وجنان معمور بالعقيدة. نشأ ابن غفار بين اطناب قبيلته نشأة عربية بخصائصها وميزاتها فكان اعظم حمية من ان يجري عليه ذل او ضيم وقد مرن على حياة البادية. وابن البادية محدود الحاجة ونظامه الاجتماعي نظام الاسرة مبكرا، وكان ابو ذر من الاحناف حيث قد ادرك

بصفاء ذهنه ما كان عليه قومه من فساد العقيدة فاطرح الاوثان ووجد قبل البعثة بثلاث سنين .

ولما بشر بالبعثة وجد مشاكله بينها وبين ما اطمئنت اليه نفسه فهب شاخصا الى مكة وعندما اصغى الى القرآن الذي لذع قلبه بقبس الحق، التهبت روحه الملتاعة بشعلة من الايمان وعاد الى قبيلته يحمل المشعل، وعندما تمت الهجرة قدم المدينة ولزم الصحبة، ولما اختار الله نبيه اليه غزا مع معاوية ارض الروم.

ولما توقف تيار الفتوح الاسلامية او تعطل اقام بالشام ولاحظ ان امراء المسلمين قد اتخذوا مال الله معونات من دون عباده، وتملكوا الارض التي كانت بحكم النظام الذي يعرفه وقفا على عامة المسلمين، ورأى ان قريشا اثرت باموال العامة وانتقلت الى حال لم تحلم به ، فالزبير بلغ ماله بعد وفاته عشرات الالوف من الدنانير وعلى رباطه الف فرس وله الف بعير و الف أمة. وطلحة كانت غلبته كل يوم الف دينار وابن عوف على مربطه مئة فرس وله الف بعير وعشرة الاف من الماشية . وذكر سعيد بن المسيب ان زيد بن ثابت مات وخلف من الذهب ما كان يكسر بالفؤوس حتى تكل اليد، ومات يعلي بن امية تاركا نصف مليون دينار وديوانا وعقارات واتسعت الدنيا على الصحابة حتى كان الفرس يشتري بمئة الف، والبستان في المدينة يباع باربعمئة الف. وحكيم بن حزام باع دارا له على معاوية بستين الف دينار فقليل له قد غبنك معاوية، والله ما اخذتها من الجاهلية الا بزق خمر، وممن كانت عنده غرائز من المال: المقداد بن الاسود وعروه بن الجعد، وانس بن مالك وعمرو بن حريت وسعيد بن عائد وأبو معلق وحاطب بن بلتعه وسويد ابن قيس.

تتكر ابو ذر لهذه الحال وهو الذي شهد دورة الفلك كاملة وثار معارضا معارضة جادة غير هازلة، ونصب نفسه للمهاجمة مهما جر عليه ذلك فاعلن برنامجه ووضح منهاجه في الاصلاح قائلا :

(الفيء يجب ان يسمى مال المسلمين ليتخلص من تلك التسمية التي سموه بها مال الله طلبا للاستيثار والتصرف فيه . والاغنياء يجب ان يرد فاضل اموالهم على الفقراء ...)

وقد فشت الدعوة وارتفع الصوت واعلم معاوية الامر بعد ان اختبر صدق المبدأ في ابي ذر وصلابته اذ بعث اليه في جنح من الليل بألف دينار ولما اصبح ارسل

يستردّها بحيلة احتالها فوجد ابا ذر قد فرقها كلها في الفقراء ليلته، وجنح معاوية الى اخذه بالشده ، وتهدهه بالقتل، ولما لم يجد كل ذلك كتب الى عثمان : ان كان لك شغل بالشام فخذ اليك ابا ذر .

ورد عليه عثمان ان اشخصه الى المدينة . فاشخصه على شر حال وولع به أهل المدينة فالتفوا حوله، عندما رأى عثمان ان يحصر الخطر في اضيق دائرة فنفاه الى الربذة وهي مكان خلوي في البادية ، ناء عن المدينة، واقع في الدو الموحش ونهى الناس عن وداعه ولكن عليا (ع) لم يرق له ان يجفى ابو ذر ويعامل بتلك الخشونة فنهض لوداعه وشجعه قائلاً :

(يا ابا ذر انك غضبت لله وان القوم خافوك على دنياهم فلو قبلت دنياهم لاحبوك ولو قرضت منها لآمنوا منك ، يا اذا ابا ذر لا يؤنسك الا الحق ولا يوحشك الا الباطل .) ثم قال للحسين : (ودعا عمكما).

لبث ابو ذر في منفاه ثلاث سنين، يعاني ألم الوحشة وكبر السن فلما ادركه الموت، كانت وفاته مؤثرة ودالة على شدة ثباته على مبدئه ، فقد روى ان امرأته حارت في امرها عندما حضرته الوفاة لوحدها في تلك الفلاة فكانت تشد الى كتيب تتطلع منه المارة وتراجع اليه فتمرضه ثم تعود الى الكتيب .. وبينما هي كذلك واذا بنفر خفاف كأنهم الرخم على الرواحل .. الاحت لهم بثوبها واقبلوا قائلين : مالك ايتها الحرة؟ قالت : امرؤ من المسلمين يموت اتكفوه؟ قالوا ومن هو ؟ قالت : أبو ذر .. ففدوه بأبائهم وأهلبوا نحور رواحلهم بالسياط يستبقون اليه حتى جاءوه وفيه رمق فقال لهم : « لو كان لي ثوب يسعني لما أحببت ان اكفن بسواه، ولكن انشدكم الله والذمة ان لا يكفني رجل منكم كان اميرا او عريفا او نقيبا او بريدا» اي انه قارف عملا من اعمال هذه المتسلطة ، التي لم يكن يراها شرعية، وكل القوم كانوا قد تعاطوا شيئا من ذلك الا فتى من الانصار انفلت قائلاً «أنا اكفك، واني لم احب شيئا مما ذكرت . اكفك في ردائي هذا الذي علي وفي ثوبين في عييتي».

وهكذا انطفاً ذلك السراج ولكن روح أبي ذر لم تتغيب مع جثمانه في تلك الفلاة البلقع بل بقي الصوت مدويا الى ان تحقق ما كان ينذر به أبو ذر .

اذا دون تاريخ الادب العربي في الربع الاول من القرن الرابع عشر الهجري وعت النجف ضروبا من الادب العالي ونجمت نوادي النجف من ذلك القرن. وتجيء النجف في الطليعة ، الحبوبي عنوان النجف وانه ينضح طيبة وينضح ادبا ويتميز علما .. غريبة هذه البعثة الادبية واغرب منها ضعف القلم العراقي اليوم، فقد وعى صدر القرن الرابع عشر الهجري ووعت النجف ضروبا من الادب العالي ونجمت نواديها بشخصيات ثرية ملهمة بالادب والعرفان، البحث عن منتوجاتها يؤلف مادة صالحة للذهنية العراقية عربية خالصة لا مشنونة ولا مشوبة .. بارك الله في النجف، بلاد الشقائق وبلاد الجمرات البيض، فما اخصب وامرع لمع الادب في تلك التربة مع الدر النجفي من عهد العرب الاول قبل الاسلام، فكم اوحت سماؤها لادباء الحيرة والهم نوارها شعراء الكوفة واضاءت منارتها لنوابغ الحلة ثم تركزت الفضيلة فيها ، جدة فجدة وصقالا يتبع بصقال، لقد تجاوزت الانحاء بصوت الادب النجفي وصيته من يوم حنين الحيري النجفي القائل مفتخرا : انا حنين ومسكني النجف .. حتى اليوم وفي ثنيات الوادي عشرات من شيوخ الادب ومئات من شبابه. ولعل القرن الثالث عشر وصدر القرن الرابع عشر الهجريين اثرى عهد ادبي في ذلك الوادي المنور ، ولا بد يوم يكشف فيه للبصر عن الخزائن النجفية ، وكم في النجف من خزائن، وترصف تلك الاثار فيستعرض الفنانون الهواة في تلك التحف ما يشرف ويمجد ويفتن .

طغى القلم وجرفنتي السورة فلوحة أدب الحبوبي، وان كانت مشتقة للادب النجفي الا انني لا اريد ان اتحدث عن ادب الحبوبي بكامله وميزات ادبه انما .. اريد حصة الموضوع من ادبه فلاقلام النشيطة الحبوبي واداب لغته، اما حصة الموضوع التي اريدها فهي الحبوبي وادب النفس تلك الناحية العامة فيه وذلك الطابع السماوي الظاهر عليه .

كان رحمه الله مثلا اعلى للاخلاق وكانت الناس تتلمذ عليه في مدرسة اخلاقية. شيخ تحسبه من الطلاوة والطراوة في ميعة الشباب . شيخوخة وقدرة وشباب طاهر لماع الفضيلة ، عذب الروح ، مهيب الطلعة، الحشمة في مداعبته والحكمة باسمة على شفثيه في كلمته والادب في ندوته وصوله الحق في حجته فصيح صريح، خشوع للحق ، بعيد عن الحشو ، ينكمش عن السفاسف، المساواة دائما

بين الفاظه ومعانيه فلا يوجز ولا يسهب، هيبة في تواضع وجلالة وظرف ، سيادة محبوبة وشخصية جذابة ، عربي صميم ، يبغض العجمة ويستتكر التكلف . ترى في علمه وشعره السمو الروحي كما في عبادته فهو يناجي الحقيقة ويستوحي الرموز المبنوثة في هذا المكان، ملء اضلاعه الحنين واللوعة . له غرام العارف وهيام المتصوف . اظهر مناقبه الاخلاقية الصلابة في المبدأ وقد برزت المعجزة في ميدان (الشعبية) وتحت أثيلات (البرجسية) يوم شخص ذاتا عن الوطن مستبسلا في الدفاع.

كان الحبوبي رجل علم وورع ، بعيدا عن المظاهر السياسية ، لا يكثر بحديث الانقلابات وحوادثها وان كثر اللغط وسيط الناس في الحركات الدستورية وتضاربت الآراء في طهران وفروق ، التي قامت لها النجف وقعدت ، اجل لقد علا الضجيج في النجف وتعددت الآراء والخطط والحبوبي في عزلة محتشمة حتى اذا زلزلت الارض لهزائز الحرب العامة واصطلى العثمانيون بنيرانها وهدد الخليج الرافدين واعلن النفير العام، وذهل الناس وروعهم الحادث، وعلتهم الخشعة بسكينة وركود لا عن خور ولا وجل ولكن حيرة وتردد فيما يجب ، واذا الحبوبي يكسر الصمت زائرا في الاجمة منتقضا من الغاب، خارجا عن العزلة وقد انقلب لينه الى صلابة وغزله حماسه، طرح القلم وتناول المرهف تاركا للقولين حلقة الدرس وندوة الادب، متقدما صفوف المحاربين في الرعيل الاول ، ذلك الهزار الفردوسي ، كان صوته الملائكي تردد نبراته :

يا غزال الكرخ وا وجدي عليك كاد سري فيك ان ينتهكا
هذه الصهباء والكأس لديك وغرامي في هواك احتنكا
اسقني كأسا وخذ كأسا اليك فلذيد العيش ان نشتركا

يبدل اللحن ويحول الترجيع منشدا :

السيف والخنجر ازهارنا اف على الريحان والآس
شراينا من دم اعدائنا وكاسنا جمجمة الراس

واعترزم الناهض التضحية بنفس قوية ومبدأ صلب فكان أنسا للناس وثورة في النفوس، وكانما انتشرت روحه اوزاعا في القطر واذا العراق تهزه النخوة بدافع من الحماس، نفرت النجف فنفر الفرات الذي انحدر فيه الحبوبي حتى بلغ

ناصرية المنتفق وقد كنت في الشطرة الثائرة وكانت فكرتي (والراشدين اخواني) عربية عراقية لا نحمد للعثمانيين عهدا ولا نعطف عليهم، ونعتقد ان ايامهم قد ولت ولا بد من العمل في ان . لا نتخلص من العقارب وننام عن الافاعي ولا نكون كالحية تطفر من المقلاة الى النار، لا نريد العثمانيين ولا الانكليز ، نفكر ونحاول الاستفادة من الظروف المواتية ونتقدم بالقضية العربية نحو الاستقلال .

وبما اني شغوف بالحبوبي الذي اصبح علما للعراق العربي توجهت الى الناصرية للاستفادة بذلك العلم المرفوع حتى اذا دخلت قبة الحبوبي المضروبة على ضفاف الفرات ادهشني المنظر وجفلت من ذلك الانقلاب في نفسية الزعيم وتلك الصلابة في المبدأ، واتقلت رأسي الهموم والتأملات من تلك الظواهر النفسية ، الحبوبي الحضري المترف الوديع يبدو وكأنه شيخ من شيوخ البادية العربية، متعاطفا بالتقاليد ، متمسكا بالعنعنات يقده بالشر ويتساقط من فيه الجمر، انه يلهب العصبية ويبعث الشعور القومي ويشب النفوس حماسة، مستشهدا بالوقائع التاريخية وايام العرب .

يتحول في حديثه من واقعة مشرفة الى حادث ممجد، يحمي الدم ويصقل النفوس ويغسل درن الصدور. ذلك الرقيق العذب وجدته والخشونة في كل نواحيه عدا نفسه ونفسه ، فقد حافظتا على الرقة والعدوبة. الحبوبي الذي نشأ في العمارات الانيقة منغمسا في رياش الحضارة والاثاث الفاخر اصبح ابا تراب وأباطين مفترشا للحصر من سعف النخيل على جرف قدر موبوء في ارض نز وهواء زعاق، يرغب اليه كبار اهل الناصرية وقد هياوا قصورهم الوثيرة ان يقيم في جناح منها فيردهم برفق وصلابة قائلا : احسبني نفرا من هذه المتطوعة لا ميزة لي وشتان بين الحرب والترف .. الحبوبي شيخ تلك العائلة الشريفة الثرية ذات الاقطاع والتجارة ، ما فارق المائدة الانيقة، يمد له سماط من حصير وسخ، ينثر عليه الخبز الاسود وثرديد في طوس من النحاس الصديء ووسط السماط سنام من قسب الزهدي العتيق، يجلس عليه فارها مع الحشوية والدهماء يلاطفهم في الاكلة رغبة في المساواة وتصميما على الخشونة ولكنه يطير بالجوائز من غرائز ماله الخاص تكريما لسيد او شيخ تأليفا لقلوبهم .. ما اعظم النفوس الكبيرة وما اروعها .. لقد تطوعت تلك الليلة اسوة به ونمت في مضربه وكل سمره حربي يعلوه صليل السلاح وأكاد اسمع زمجرة البطولة في ثناياه وبعد ان مضى هزيع من الليل

هوم مغنيا .. اما انا فبت وكأني بين الموج والعاصفة افتكارا واعتبارا ، وعندما بشر الفجر والهواء ندي قارس ، هب الحبوبي من رقاده وانا بهيأة النائم فمشى الى الفرات مسبغا وضوءه وقام الى الصلاة بصوت خافت مترفقا بالنائمين وبعد ان انفلت من صلاته نبهت نفسه نسمة الصباح فرجع البلبل الى حديقته واستعاض عن ترتيل الاذكار والادعية بالترنم هازجا بالشعر البدوي (ركباني) ولعلها ذكريات حياته في ربوع حائل التي عاش فيها ونشأ فيها الى الخامسة والعشرين من عمره ثم ترنم البلبل قائلا :

يا نجمة الصبح يَلِي سرت عليها النشامه
سهيت انا يوم اصلي سجدت قبل الاقامة

فاستغربت جلال تلك النفس واطوارها الروحية، واستويت جالسا : صباح الخير يا سيدي : فرد علي تحيتي بأحسن منها ورغب الي ان اعود الى الغراف مستنفرا قبائله فاجبته بالطاعة ورغب ان يحرر كلمة بلاغ للزعماء فقلت لا حاجة انا كتابك الناطق فقال ولكني احب ان اساهم واقوم بما علي .. احضرنا القلم والقرطاس وجعل يملي على الكتب واذا بدموعه الغالية يلمع نثارها على كريمته عندما يلفظ كلمة النخوة والاستنهاض، فاكبرت ذلك المنظر الرهيب، وخشعت نفسي فاقسمت عليه ان يكف ويكفكف والا فاني منسحب من التطوع، لا استطيع ان اشاهد دمعة السيد . فقال حسب رغبتك وأنشد:

ملكتم دموع العين ثم رددتها الى ناظري فالعين في القلب تدمع

وعند الصباح زاره احد افاضل النجف في البزة العسكرية القلقة عليه لانه لم يخلق لها، وقد كان مخذولا وكان من بقية السيوف الذين تراجعوا فلولا من البصرة بعد ان غلبهم الانكليز وكان تراجعهم عن طريق البادية بصورة غير منتظمة وقد كسفت حال ذلك الفاضل وذوى جسمه وتورمت قدماه وهو احب ما يكون للسيد الحبوبي لانه جاره في النجف الدار للدار، وهو من لدات ولده، كما ولابيه الجليل المكانة العليا عند الحبوبي . وعندما شاهدت ما عليه رغبت الى السيد ان يوعز الى القائد بان يعير خدماته الى السيد ويبدل بزته العسكرية ويعود الى عمته ويستخدم للاستنفار في العشائر وذلك اليق به وارفق، فاجابني بالرفض البات قائلا : اني اكره ان اجرد رجلا من بزة المحاربين وهي بزة الجندي .. وعبثا احاول ذلك ولما ينست قمت بنفسي في ذلك العمل وذكرت للقائد امتناع السيد في هذا

الموضوع احتراماً للباس الجندي ولكني ارى ان العمة لهذا المتطوع افيد واعدو فاجابني القائد لما اريد فألبست الفاضل العمامة وجئت به الى السيد فقال لي انك جريء وشجاع.

وفي امسية رغب الي احد خاصته ان افوضه بحذق وترفق ذاكرنا نفاذ نقودهم وكان قد استصحب رخصة ذهبية من ماله وذلك عندما نفذ من النجف ولكنها نفذت او اوشكت على النفاذ في السماوة فسحب حوالة نقدية على اخيه السيد هادي في النجف فسدها، والان وقد نفذت الا قليلا وهو يصدر امره يوميا بالجوائز والاعطيات لشيوخ العشائر التي تقد عليه ولا يمكن التراخي في امتثاله .. وسواك لا يشجع على مفاوضته فذهبت الى متصرف الناصرية حمزة بك الذي كان اكثر اهتماما مني ، ومضينا معا الى قائد الحركات احمد بك اوراق، وبعد ان فاتحناه طار سرورا وقال : اني مقدر للموقف ولكن صراحة السيد وصلابته تمنعني من مكاشفته في امر مالي .. هذه الف ليرة ذهبية يتفضل بقبولها الان وفي كل اسبوع مثلها ينفقها على من حوله . ودعتهما وجئت السيد فصارحته قائلاً : ان الحرب طويلة ويجب ان تكون مكثا عليها وان اخاك لا يتسطيع المداومة على المدد بالنقد، لان النقد اليوم في العراق حلقت به عنقاء مغرب .. وهذا بيت المال مستعد لتموين الجيش وانت قائد الجيش فهل تأذن ان يضعوا تحت تصرفك مقداراً من الذهب المسكوك؟ وشرحت له حديث القائد والمتصرف فرق لآخيه وعز عليه شحة المدد ولكنه انكر علي قبول النقد وتشدد في الامتناع قائلاً : اني مكلف بالتضحية بمالي وبنفسي فاذا نفذ المال بقيت نوبة النفس اعتبروني جندياً من الجند آكل مما يأكلون وأشرب مما يشربون وجهاد النفس افضل .

لا . لا اقبل درهما واحدا وان قائد الجيش العام اعرف بمواضيع الصرف ولا أسمح لاحد ان يفتاحني في هذا الشأن . قل لمحسن - يريد به العلامة السيد محسن الحكيم (وقد كان ثقته وولي شؤونه الهامة دون غيره من الرفاق) قل لمحسن (يكررها) يصرف ما عنده وبعد ذلك فأرزاقتنا في مستودع الذخيرة .. وفي اليوم التالي اجتمعت بعدد من الزعماء وبضباط الجيش من العرب فاتفقنا على ان نفاوض السيد الحبوبي في الاستفادة من الظروف الراهنة كي لا نهلك بهلاك الاتراك .. نريد ان نوحدها كلمتنا تحت زعامته ونقف بسلاحنا في وجه الاتراك والانكليز فنجدد هؤلاء ونفاوض اولئك قائلين لهم لا فائدة لنا في حربكم واذا كان

لكم مع الاتراك شأن فسوف ننهي أمرهم .. ارجعوا الى الخليج تاركين العراق
لاهله حتى تتصل البلاد العربية كافة وتختار الزعيم العام الذي نفاوضكم بتقرير
المصير على اساس الاستقلال. وقد انتدبوني لمفاوضة الحبوبي.

الليل منتصف والحي في سبات لا يعلم ما يراد به وما يراد منه، وذوو الهموم
يعالجون المحنة على اسم الله والوطن. فذهبت الي مضرب الزعيم فقال ما وراءك
يا عصام؟ فقلت ارجو ان يكون امامي الرشد والتوفيق . وفأوضته راكسا في
سكوت وتأمل وما عتم ان انتفض متجها الي بأجمعه قائلا :

لست عاقا لقومي، ولا متهاونا في وطني، واعتقد ان الامر ما رث وتراخي الا بعد
ان خرج من يد الاهل الخالص وهم العرب، فانهم اهل هذا الامر ولكن الموقف
خرج ولا آمن زلة القدم .. انا لا اعرف دواليب السياسة ولا احسن التصرف فهيا
، ومبدئي الوحيد مقاتلة الجيش المحتل قبل كل شيء. وبعد ذلك ننظر في الامر ..
ان في الاتراك معونة في هذا العام واذا انتصرنا نحاسبهم في المستقبل غير هذا لا
اعرف ولان كنت قبل اليوم متبوعا فالواجب يحتم ان اكون اليوم تابعا، وما
تابعتي هذه الا اهل الخبرة وهم الاتراك .. انا تابع للمائل منهم اما انت والنفر من
اصحابك فلا ضرستكم الحروب ولا حنكتكم التجارب ولست بتارك مبدئي لكم
وهذه افكار خطيرة لا اسمح لاحد بمفاوضتي فيها بعد الان لاني اراها انتقاضا على
المبدأ . واستعبر . ثم زجرني زجرة مرة ومضى على هذه الصلابة حتى اوار
الحرب .

ولما انتكست الراية العثمانية لازم ساقاة الجيش المفلول حتى يبلغ به المأمّن فكانت
الخاتمة مؤلمة ، وصدمت النكبة ذلك القلب الطيب . وتألمت تلك الروح الطاهرة
ففاضت الى ربها ومات في مضارب المتطوعة فشيخ الى النجف ووقفت على
جثمان الراحل العظيم صارخا :

رجال الحمى قد شيعوك الى الثغر	فبالرغم ان يستقبلوك الى القبر
وشاؤوك للاوطان ظهرا ممنعا	وما شعروا الا بقاصمة الظهر
وكم خطوة للمجد قمت بسعيها	تقصر عن ادراكها خطوة الخضر
وكم ليلة يا ليلة القدر مثلها	ووجهك في آفاقنا مطلع الفجر
مضى منعة الابصار وجهها مباركا	بهيا كقرص البدر او طبق الزهر

اللوحة الثانية

1922

أم ناصر أو كرامة الوجه عند العرب

يشيع في الريف التطوع للسراية وهي ان يصحب احدهم من يتخوف من اجتياز الطريق . وتكون تلك الصحبة حماية له في مسالك الويل والحرب. كما انهم يعطون هذه الحماية لكل غريب تناول من طعامهم او شرابهم وهو سالك طريقه. ويعبرون عن هذه الحماية ب (حق الفدح). وقد يعبرون عنها بأدق من هذا التعبير والطفه، فهم يسمونها «الوجه» يريدون بذلك ان هذا المجتاز يحمل ماء وجوهنا وكرامتها. ومن اروغ ما شاهدت من حقوق الوجه وكرامتها حادثة هذه هي :

في عام 1915 والعراق مشبوب بالفوضى، وقد سدت في وجه الناس وحلقت بالامن عنقاء مغرب ، كنت منحدرًا في فرات السماوة الى بلاد المنتفق، ولما بلغت منازل - عيسى- الواقعة تحت السماوة وجدت القوم في وضع حرب، والمتحاربون على الضفاف والفراض وقذائف الرصاص تعبر النهر من هنا وهناك والسلامة غير مضمونة للمجتازين فملنا الى الجانب الايسر ونزلنا في حي هناك .. ولكننا وجدنا الحي خاليا من الرجال لانهم نفروا الى الحرب. وتوسعت البيوت فعرفت بيت النابه في ذلك الحي «ربعه» . ودخلنا الربعة فكانت فارغة وسمعنا من وراء الستار ولولة ونشيجا فهممت بالخروج فاذا بصبي في سن العاشرة يلحق بنا قائلاً ليس لك ان تترك الربعة من دون ان تأكل وتشرب فشكرته معتذرا ولكن جاءت عجوز قد عصرها الالم فشددت علي النكير فلم اجد غير الامتثال والعودة الى الربعة. وسرعان ما حمل الصبي على رأسه طبق الترويقة وكان فيه قدح لبن يتطفطف على منكبيه واعتذر قائلاً :

هذه حاضرة العرب. والعجوز تجري وراء الصبي وتقديه فقلت : بارك الله فيكم، انا في حاجة الى من يجتاز بي هذا النهر المشبوب لا الى الطعام فقالت العجوز : احترم واجب الطعام ونحن نحترم لك حقك وما يوجبه. فتناولت شيئاً واذا بابريق القهوة بيد الصبي المرتعشة لانها لا تقوى على حمل الابريق والعجوز تدعو له قائلة : بارك الله فيك خليفة الماضين وبقية الاجاويد . فتناولت القهوة وأنا حائر مما اشاهد، وعندما قالت العجوز : تفضل اذا شئت حتى نوصلك. فقلت ومن يصحبنى ؟ فانتحبت باكية وقالت : لا عليك انت في «وجه ام ناصر». فلم احر جوابا وبماذا اكلم الدموع ؟ مشينا الى الزورق يتقدمني الصبي وهناك لوح العجوز بطرف عباؤها صائحة : ايه يا معشر «عيسى» انا ام ناصر وهذا ولده نريد ان نجتاز بضيف ناصر الطريق. فالوجه الوجه والكرامة الكرامة يا معشر عيسى .. عطلوا سلاحكم قليلا .. اريد ذلك من العدو ومن الصديق ..

وسرعان ما اختلطت آهة العجوز برنة الجانبين وغطت الجو سحابة من كآبة موشحة بقوس قزح او باقواس ملونة من النخوة والشمم وسكت السلاح بخشوع واحترام وسكت أزيز الرصاص وعلت اصوات القوم :

تفضلي .. وكان مع بعض الاصوات نشيج بكاء ، فركبنا الزورق وأنا مصعوق مما ارى وبانكسار وتأدب سألت العجوز الامر فقالت : ان ناصرا ولدها الوحيد وهو فتى الحي قتل الباحة وشباب العشيرة نصف رافقوا النعش وحتى الان لم يعودوا ونصف اشعلوا هذه المشبوبة .. وقد دخلت انت بيت ناصر فكان حقا علينا ان نحفظ ناصر في بيته . وها انا وولده نوصلك بالسلامة كرامة لوجه ناصر ، تركت المأتم والمناحة لاقوم بالواجب . فأكبرت تلك الشيم وخشعت لتلك التقاليد وقبلت وجه الصبي وعزيبته شاكرا وداعيا.

اللوحة الثالثة

الامانة عند العرب

ليس في اطار التاريخ ولا على صدر الزمن عقد ائمن من الامانة. وما في المثل اذا قدرت وثمرت المثل جوهرة أغلى من الامانة سواء أكانت المثل العليا انعكاسا او اثرا من آثارها .. او كان الواقع تصويرا للمثل وانتقالا من عالم الخيال الى عالم التحقق. ان الامانة فضيلة نفسية وعنصر ادبي من ألمع الفضائل وأطيبها .. يتجلى بها الخير الزكي من بني الانسان ، انها فخر محض في دنيا المحامد، يحملها نوو الكمالات الشريفة النبيلة ، لا رهبة في نفع ولا رهبة من سلطان، انما تقتضيها طهارة الضمير وشرف النفس. فليس في وجدان الفرد ولا في وجدان المجتمع اكرم من الامانة ولا اسمى ، انها حيلة كريمات النفوس ما صاغها وزينها الا شخص معنوي يسمى النبل وجعلها خير مظهر من مظاهر الشرف، يتطوع لها الطيب الكامل من الناس ويلبس تاجها ذلك الموفق .. ان الامانة يخضع لها الجبل الاشم ، ولكن يجعلها الرجل الشهم.. ان خير الوثائق الامانة .. ومن اسرار الحياة الاجتماعية واحاجيها ان الامانة توجد في البداوة اكثر منها في الحضارة، فالبدوي في الاكثر امين يتعاطى الامانة بصفاء نفس وطيب طوية .. انه امين على السر ، امين على المال، امين على الشرف. ان البدوي يحب الامانة كمظهر لعفة النفس وكرم الخلال ، انها عنده وثيقة ما تعدلها وثيقة .

ان الكثير من الصفات الخيرة للمرء قد تعود عليه بالنفع المشترك ولكن الامانة غيرية محضة ونفع لطرف واحد. وان مسؤولية الضمير تتجلى بكل وضوح في الامانة.

مظهران من مظاهر الامانة حصلا لي في غضون الحرب الاولى خشعت لهما وباركت للشعب العراقي الذي ظهرت معجزاته الاخلاقية في هذين الامينين: السيد عبدالمطلب والسيد حسن السعيدي ..

لقد كان من احكام الحرب الصارمة ان يحجز الذهب ولا يباح نقله من بلد الى بلد ، ويرغب احد التجار الى رفيقه البدوي وهو السيد عبدالمطلب الذي كان خبيرا بمسالك الجزيرة ما بين سوريا والعراق يرغب اليه ويأتمنه على خمسة عشر الف

ليرة ذهبية ينقلها من دمشق الى بغداد سالكا غير الطريق المالوف فينفذ رغبته مخاطرا بنفسه ويسلك الدرب الموحش على حمار هزيل كمسكين من مساكين الجزيرة . وبينما هو في اتجاهه يلوح له من بعيد طلائح غزو او ذعار فيأوى الى تل ويدفن الذهب في التراب ويعفي الاثر ، ويسوق حماره .. وليس في خرجه غير كسرة خبز ومشربة ماء صغيرة. ويطلع عليه الذعار فيسلبوه جرده ويتركوه وحماره الهزيل في ظلام الليل ويستخرج الذهب ويسلك الطريق. ويبلغ صاحبه ان السيد عبدالمطلب سلب فيحزن عليه اكثر من حزنه على الذهب لانه هو الذي ورطه وفرط بذلك الرفيق الوفي ويجتاز عبدالمطلب مشارف الشام الى سواد العراق مما يلي كربلاء.

عندما يجتمع بصحبه يقول له ، فدى لك ما ذهب والغنم كل الغنم في سلامتك. فيرد عليه لا، لا ، الغنم في سلامة امانتي التي لم تذهب ويدفع له الذهب كاملا غير منقوص ولم يقبل كل بذل ازاء ذلك.

السيد حسن السعدي ، رجل يتعاطى تجارة الحبوب في شطرة المنتفق. ذلك البلد الذي كان مضطربا والفتنة بين طرفيه، محلة عدو على محلة وطرف يميل على طرف قتلا ونهبا . وطبقة التجار والكسبة خائفون على اموالهم ونفوسهم من سكان البلد وذعارها واوار الحرب العامة الاولى مشبوب بين الانكليز والاتراك. وعندما سقطت بغداد بلغ الذعر مبلغه في مدينة الشطرة ، وفيها رجل كريم الشمائل حميد الاخلاق جم الصفات الفاضلة يهب للنخوة ويغامر للمعروف، حضري قبلي يدعى كاظم العلي أغا. وكان وثيق الرابطة بزعيم الشطرة يسنده بالرأي والسلاح الامر الذي ثقل على اعداء الزعيم فكانوا يحاولون اغتياله اضعافا لرفيقه في بتر هذا العضو النافع. وقد ادرك كاظم ما يراد به وكان حذرا كل الحذر وهو تاجر حبوب وغير حبوب ، ومن شدة حذره لم يكن له من عمل تجاري ولا سجل ، وكان يتنقل بامواله ومعاملاته في محلات التجار وبيعه وشراؤه ارتجالي وكما يقولون على الرجل لم يمتلك عقارا او مزرعة خوفا من الطوارئ وقد برز في الوقائع الحربية ضد الانكليز . وكان خصما عنيدا لهم .

ولما سقطت بغداد استولت على الشطرة الرهبة والفرع وتركها الزعيم خيون مبتعدا وبقي رفيقه كاظم يجمع امواله المتفرقة حتى يتيسر له امر نزوحه من الشطرة وبينما هو كذلك اذ تغتاله الجماعة التي كانت تتحين به الفرصة . ولما

اراد ذووه الوقوف على امواله فلم يجدوا ما لديهم سوى دفتر صغير ليس فيه ما يرشد لان حذر كظم جعله يتعمد الايهام والابهام .. فضاع كاظم وضاعت مخلفاته وكان قد صفى كل ثروته نقودا. اما علم تلك النقود فعند الله واصبح اولاده ورثة فقراء من بعده ولما انتهت الفوضى وحكم البلد احد جنود الاحتلال وقد نسي كاظما اصحابه وذووه وكننت ضيفا عند بعض اصحابي وقد قمنا لتناول وجبة العشاء واذا بالسيد حسن السعيد يدخل علينا وليس الوقت وقت زيارة فدعواناه لمشاركتنا في الطعام واعتذر وكان مرتبكا وهمس في اذن صاحب الدار فيدخل صاحب الدار الى بيت الحرم قائلا لي : اني الود بك وقد اخترتك لمهمني واضعا دمي ومالي بين يديك وديعة. فادهشني ما شاهدت وما سمعت فقلت : هون عليك وافصح .. فقال : ان نقود كاظم عندي امانة لا يعلم بها ولا بمستقرها الا الله . وانا في كل هذه الفترة عذبتني الهواجس واكلتني الهموم محافظا على امانتي بالكتمان خوفا من اعداء كاظم واصدقائه. خلص ذمتي من الامانة وخلصني من الفتك بي .. فما كان مني دون ان اقبل وجهه الكريم وامسح دموعه وقد اكبرت منه تلك الحفيظة وحالا تركت العشاء لاهله وذهبت الى بيت الزعيم خيون فاعتزلت به واطلعت على الامر واخبرته اني طمنت الرجل الامين . فقال حسنا فعلت وانه يستحق التقدير والاكبار . وبعد تمهيد وترتيب سالنا الامير عن محل الامانة فاخذ بايدينا نحن وجماعة من التجار وعيون البلد وذوي المتوفي وجئنا الى داره .. وفي بهو الدار اشار الى موضع حفرناه واذا بنا نشاهد حبالا من مسد مسدودا. وحفرنا حول الحبل واذا بوعاء من نحاس مغلق وقد لف بطرف ذلك الحبل ، فسحبناه وفتحناه فوجدنا كومة من الذهب المسكوك تتوهج وعليها ورقة بخط كاظم وتوقيعه رسم فيها «هذا ما املكه من حطام الدنيا وقدره اثنا عشر الف ليرة ذهبية عثمانية» وجعلنا نعد الليرات خمسا وعشرين خمسا وعشرين فوجدنا المبلغ كاملا واودعناه بصورة مؤقتة ومكشوفة الى ان ننظر في حصص الورثة . وتنفس السيد حسن الصعداء وقبل وجهي ثلاثا قائلا : بيض الله وجهك فقد أبرأت ذمتي.

اللوحة الرابعة

بهو الاسود في الحمراء من الاندلس وفي خان عطية من العراق في مدينة النجف

أي سر في الدماء الحرة يهدأ ويثور وأية وراثه ممجدة للمزايا والمثل يتلقاها
الابناء حبة من الالباء .. للنجف - وما اعذب الاسم - سطوع ينبعث وينبثق من
مصادر عديدة . فيما بين تلك الذكوات البيض وعلى مساحب الوادي شيوع واذاعة
للعلم والهدى والمكارم والاخلاق .. النجف بلد المقابر والمشانق . المع ما في ها
ادب النفس وادب اللسان وادب السيف . توارثت بلد النجوم نبل الغاية جيلا بعد
جيل ، فكم هبت مغامرة في الذب عن الكرامة ومستبصلة في الحومة للدفاع عن
الوطن ، وبين الصحو والغيوم كانت تلك القبة «تاج الجزيرة» وهاجة بالعظمة لا
تحجب ضوءها العواصف ولا تبدد سناها .

وبما ان النجف مدينة عالمية فهي لا تهتم بحوزتها فقط ولا تأخذ بحجرتها فحسب.
كما انها لا تسأل عن الموسم طاب ام خاب، بل تهتم بامر الحزم غير ناشدة عن
الولي والوسمي، يعبق شيخها ويفوح قيصومها للقريب والبعيد .. دائما وابدا
تهزها النخوة في البلج وفي الحلك فما اروع موافقها طيلة النصف الاول من القرن
العشرين اذ تعاورت الخطوب البلاد العربية ، فتطلعت النجف للتطوع وقد عز
عليها انتثار المسبحة، وانفراط العقد، ورعشة اليد المصرفة، وانخزال الفكرة
الموجهة. حتى انقلب التنافس على المكارم الى تخاذل في العزائم فعري الوادي
وغاض الغدير وتناكرت الاخوة وتجادب او تحارب الجيران .. كل هذا والنجف
للذب وللذود تتحدر او تصعد في الفرات فتسمعك بربرة الليث وزمجرة النمر
ودوي السيل واخرى تزحف بالراية الى مستوى دجلة وتلال المدائن وصوتها
الداوي يهز اسلاك البرق في الغرب والشرق ، حتى اذا خبت جمرة الحرب
الاولى وامتحن العراق بالاحتلال كانت النجف الجريحة تململ في العرين تململ

الاسد الذي عصفت به القيود وقد عز عليها ان تهيمن القوة في العراق ويسيطر الفاتح المتغطرس . ولما ازعجها الوضع الصارخ ونغر الجرح الدامي قلبت الدفاع من العفن الى السر وتحولت بالدعوة من الجهر الى الهمس لتنفض الجمر عن الرماد ، ومما بين الغلس والغيش زفت المؤامرة المتشحة بوسام الشمم وجلباب العزة .. اثنا عشر بطلا فقط تقدموا الى القلعة الانكليزية في النجف مخفر - خان عطية- تقدموا وهم يصيحون يا آل بكر : انهم يموتون . افرغوا رصاص الثأر في صدر الحاكم البريطاني «مارشال» وضابطين وجندي وعادوا يحملون شهيدا لهم ..

عادوا يزلجون نشيد العرس واثقين بانهم اشعلوا الفتيل وكانوا مجموعة شباب وكهول يقودهم شيخ يقال اشتعل الشيب في رأسه وتوجه المجد بغاره شجاع حازم تمرس على الحرب وضرسته الوقائع .. رجع ذلك القائد واضعا سلاحه في بيته ومتناولا مفتاح حانوته فجلس الى بساطه وميزانه يساوم هذا ويبيع الى ذاك ولكن الجيش الانكليزي المفجوع كان في روعة ولوعة، زلزله الحادث الجلل، واجفله النبأ المزعج فهب القائد «بلفور» من معسكره بظهر الكوفة وجاء بكوكبة من الحرس ووقف على الدم المسفوح وهو يسيل على رملة النجف، فطاش لبه وذهل مبهوتا. وحالا رن ازيز تلك الرصاصات في مركز القيادة العامة ببغداد وفي ديوان الحاكم السياسي العام، فكان الهلع والفرع وكان الخوف والحذر من الصدى لتلك الطلقات فتعم الانتفاضة الانحاء العراقية والحكام السياسيون منتشرون في القرى والقصبات والنجف قدوة في الهبوب والنهضة .

وكان الحزم يحتم عليهم بالصرامة واخذ النجف والنجفيين بالشدة اذ لا حياة للانكليز في العراق الا بالرصاص . فنفروا خفافا وثقالا الى النجف وطوقوها بالجنود والمدافع ملء الخنادق وفوق القلاع، ولكن صممت النجف وتدرعت بالحزم ومدت الاذرع القتل الصابرة والمنافحة .. وقد مكثت على الحرب طيلة ثلاثة عشر يوما على الرغم من كونها بلدا صحراويا لا ماء فيه ولا طعام ولكن عاش الابطال على اعصابهم ولا زاد لهم الا زاد النبل والاباء، حتى اذا لم يبق في القوس منزع انخرع الدرع من الجانب الغربي من المدينة ونفذت الجنود من ذلك الفتق الى داخل السور والمستبسلون للدفاع يتحولون من حارة لحارة ، ومن دار لدار، ولما نفذ العتاد وبطل الدفاع تغطرس الانكليز ولبسوا جلد النمر واعتلوا بكل

قساوة دوام التطويق الى ان يتم قصاص البلد (كما يزعمون) الذي لم يبتدىء بعد وقد طلبوا استسلام الجمرات والمساير من رجالات النجف وشبابها وهددوا بالاعدام والمشانق ..

وكان في طليعة اولئك المساير البطل كاظم صبي رجل الشهامة ومثال الفتوة ذلك الكهل الوسيم المهيب جميل الخمائل والشمائل عذب الكلمة يتفحص نبلا وبطولة ، هباب للطيبات، مقدم يطفح في الرعيل الاول يخور عزم الليث ولا يخور عزمه . وكان كبير ضباط الانكليز يقدر بسالة كاظم ويحترم شهامته وحرصا على حياة ذلك البطل ارسل اليه من يخبره ان الدفاع اصبح لغوا وبدون جدوى فهو يطلب منه الاعتزال ويضمن له السلامة والكرامة.

وعندما اسر ذلك الوسيط النبأ الى كاظم انتفض عزة وابهاء، انتفض وهو يقول : ما انا فرد انما انا مجموع هؤلاء المنافحين ولا خير في الحياة بعدهم، انا النجف وما ضم سورها، فلا سلامة لي الا بسلامتها ولا كرامة الا بكرامتها .. فلما ان ينكشف المهاجمون ويفك الطوق والا فاني محارب حتى النفس الاخير وانا واثق ان المغبة هي التقاف حبل المشنقة على هذا الجيد الاتلع ولكن هكذا يزيد الشرف ، وهكذا تحتم العزة فيطرد كاظم الامل في الحياة ويمضي في الدفاع ولما استيأس الناس ونفذ كل ما في عبابهم من صبر وعتاد جاء كاظم ووقف بازاء الاسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر الانكليزي الذي اكثر كاظم فيه القتلى والجرحى قائلا للحرس :

امسكوني : انا كاظم الصبي واطلقوا النجف الاسيرة .. وهكذا يمشي البطل الى المشنقة بخطى متزنة مترفعا ومرتفعا على عمود الشرف والاعتزاز بين تلك الاعمدة التي صفت للبهاليل من اخوانه، اثنا عشر بطلا مشنوقا على متون (كري سعدة) بين الكوفة والنجف صعدا المشانق وهم ينشدون :

يا لمعة النجف المعلى لا تجهمك الطوارق

وعلى مثل ما اقدم عليه البطل كاظم اقدم الزعيمان علي الفضل والشيخ عبد الواحد، فعلي الفضل الزعيم لخفاجة النازلة من ذنابة وادي الفرات مما يلي ناصرية المنتفق. وكانت خفاجة قد هبطت الى العراق قبل العهد الاسلامي، هبطت مما يلي بادية البصرة وكانت لها سرايا ما بين البصرة والكوفة، ومن الكوفة انتقلت الى عمود الفرات الذي كان مادا بين (برس) و (نرس) واشتركت مع بني

اسد في انشاء الحلة (السيفية) وفاضت من هناك الى كور واسط وكان لها امارة (آل شاهين) وانشأت مدينتي (الشاهانية) و (العمرانية). وبقية هذا الرهط من خفاجة التي يتزعمها الشيخ علي الفضل، وكم لهذا الشيخ من مواقف جليلة . اعرف منها انه استنفر قومه لمحاربة الانكليز والجيوش الانكليزية التي ارادت النفوذ من الغراف الى الكوت لفك الحصار المضروب على القائد (طوسند) فوقف علي الفضل على رأس خفاجة ووقف رويضي آل بشارة على رأس بني الازرق (آل ازيرج) ووقف خيون آل عبيد على رأس بني عبد القيس (العبودة) حائلين دون تقدم الجيوش الانكليزية بمعارك ضارية في (البطيحة) و (تل الملح) وبعد استيلاء الانكليز على بغداد بطل الدفاع في العراق واراد الانكليز ضرب الذين تعرضوا لجيوشهم فتقدم الشيخ علي الفضل وسلم نفسه طوعا للسلطة الانكليزية في الناصرية مضحيا بنفسه دون خفاجة قائلا انا وحدي المسؤول عن ما قامت به خفاجة فاثأروا مني ولا تصلوا اليها بسوء ..

وعلى مثل هذه التضحية اقدم بطل الثورة الكبرى الشيخ عبد الواحد آل فرعون بعد ان ابلى احسن البلاء واروع الاستبسال في مواقف الثورة .. وعندما بطلت المقاومة بتغلب الجيوش الانكليزية على الثوار تقدم الشيخ البطل طوعا وسلم نفسه للجيش الانكليزي تقاديا عن ما يصيب عشيرته من اجله ..

هذه كلمتي عن بهو الاسود في النجف في شخص كاظم صبي واستمع الان ايها القارئ الكريم الى كلمة الزيات عن بهو الاسود في غرناطة متقمصة شخص موسى بن ابي الغسان الاندلسي انقلها بتصريف وايجاز :

انقسم ملك عبدالرحمن الى دويلات تتنافس في الحكم ولكن تتعاس في الشدة، حتى لم يبق للمسلمين من الفردوس المفقود الا غرناطة وكان ملكها عبد الله بن محمد مأمونا في السياسة ، ضعيف الوطنية ، خوار العزيمة ، فلم يكديسمع ان (فرناند) يمد عينيه الى غرناطة عروس الاندلس وموضع الحمراء حتى اشفق على نفسه فترك الدفاع وأثر العافية وارسل الى العدو سرا من يفاوضه في تسليم المملكة على ان يقطعه (اندروس) يحكم فيها ويعيش . وابرمت المعاهدة في الظلام وحن موعد التسليم ففاوض فيه جماعة من فرسان غرناطة لا تزال فيهم نخوة العروبة ونجدة الفتوة.

وكان على رأس الفتية موسى بن ابي الغسان وكان مثالا للفروسية العربية جامعا

للصفات الجليلة التي جعلته موضع الاعجاب، وكان منقطع النظير في المغامرات التي كانت حديث الناس، قال ابن ابي الغسان للملك الهلوع في لهجة الغضبان الانوف :

ان العربي لا يقبل الحيف ما دام يحمل السيف وان موسى يفضل ان يكون له قبر في انقاض غرناطة على ان يكون له قصر في رياض اندروس ، واندروس هي مقر المقاطعة التي توقعها الملك الهلوع في معاهدته فلم يسع ابو عبدالله الا ان ينزل على حكم السادة والقادة واصبح الناس ذات يوم يرون في اودية (شيل) ثمانين الفا من الجند الزاحف على جرح غرناطة، وكان موسى حبيب الجيش والشعب قد قسم الدفاع عن المدينة بين القادة وتولى هو قيادة الفرسان واتقدت الحرب وغرناطة لا يناصرها الا ابناؤها الخالص والصبر والايمان . وكان لفروسية ابن الغسان حملات مظفرة ودام الحصار على غرناطة سبعة اشهر قل فيها القوات وضاق الوسع فتقدم حاكم المدينة قائلا : اما الدفاع فلا جدوى فيه ولا قبل لنا فيه فابتدره موسى بقوله :

ان النفوس المجاهدة والمصابرة لا تعرف اليأس .ثم امر ففتحت الابواب وخرج للقاء العدو وجها لوجه وقال لفرسانه لم يبق لنا من الاندلس كلها الا الارض التي نقف عليها فاذا فقدناها فقدنا الوطن والحرية .. واستمرت المعركة على المد والجزر. وفي المساء يعقد الملك في بهو الحمراء مجلسا قلبوا فيه الامر على وجوهه المختلفة فيجمع الرأي على التسليم ويعارض ابن ابي الغسان في الاستسلام ويحاول ان يبعث في النفوس القانطة روح الرجاء .. فقال :

يا قوم ان وسائلنا الدفاعية لم تنفذ بعد وما زلنا نملك وسيلة واذا لم يجد كل منا الارض التي تواريه فانه لم يعدم السماء التي تغطيه، وخير لنا ان نحصى فيمن جاهد وقتل ان نحصى فيمن ساوموا وسلموا ..

ولكن بلاغة موسى لم تصادف في هذه المرة هوى في النفوس فكانت نهاية البطل ان نهض من مكانه ومضى لا يلوي على احد حتى دخل داره فلبس سلاحه وركب جواده وخرج الى ظاهر غرناطة واذا به ما بين فرسان الاسبان .غاص هو وفرسه في الحديد، فاستوقفوه ليعرفوه فعمد الى كبيرهم وانتزعه عن سرجه وضرب به الارض ثم حمل عليهم حملة من يطلب الموت وتناوشته السيوف واصابته الرماح وصرع مضرجا بدمه وتسابق الفرسان ليأسروه فجثا على ركبتيه

واستل خنجره واخذ يثخن فيهم حتى خارت قواه من كثرة ما نزف من دمه وخشي
ان يقع في اسر عدوه فارتد الى الوراء وقذف بنفسه في النهر فغاص من ثقل
دروعه الى القاع .

اللوحة الخامسة

1927

القومية العربية في العراق

لم يشهد التاريخ قومية متماسكة حية مثل القومية العربية فالرابطة القومية عند العرب اقوى من كل الروابط ، واحكم من كل الوشائج ، وطابعها ظاهر على كل تقاليدهم وشعائرهم وترى احساب العرب وانسابهم المرجع الوحيد اذا انقطعت الوسائل وتفككت الاسباب وكم من شواهد تاريخية تكشف هذه الحقيقة وقت المحنة وساعة الضيق حتى ان وتر القومية في صدر الاسلام كان اكثر تحسسا من الرابطة الدينية عند العرب الذين اعتنقوا ذلك الدين الحنيف برغم ان الرابطة الدينية جديدة غضة في النفوذ في بلادهم بعد لم ترث ولم تتهلل .

لقد كان للقومية الاثر الفعال في فتح العراق حيث خفقت قلوب الذين كانوا في الضاحية وبلاد الضاحية وفي البادية العراقية لضرب الفرس، وسعد يضربهم. وترى الامام الحسين عليه السلام يقرع الجيوش يوم الطف فيقول (اذا لم يكن لكم دين فكونوا عربا، ارجعوا الى احسابكم وانسابكم).

وبالرابطة القومية تغلب الامويين على الهاشميين الذين كانت الرابطة الدينية ملء اكفهم لسابقتهم وبلائهم في الاسلام ويد الامويين فارغة لانهم اول من قاوم وآخر من اسلم .

وحتى في تاريخنا الاخير الذي هجن فيه الدم وكثر الاختلاط تظهر آثار العصبية الدينية في الساعة النكراء وفي الموقف الحرج ، ففي القرن الثالث عشر الهجري حصلت واقعة كبرى في بلد المنتفك والبصرة برهنت على ذلك باوضح برهان، برهنت بوضوح على تمكن القومية من نفوس العراقيين، وتلك الواقعة تسمى عند

عرب المنتفك (الفضيلة) والفضيلة هذه موقع في ضواحي سوق الشيوخ واليك تفاصيلها:

كانت ايران خاضعة لسلطة عبدالكريم الزند وكانت بغداد للولاة من العثمانيين . وقضت امور ادارية ان تقبض السلطة في بغداد على بعض رجال الدين التابعين لايران والقاطنين في قسبة الكاظمية ذلك الامر الذي اغضب حكومة ايران وحرش النار بين الدولتين فجهزت ايران حملة على العراق من طريق البصرة، وتقدمت بعد احتلال البصرة مصعدة في الفرات الى ضواحي سوق الشيوخ والى المكان المعروف بالفضيلة .

وحسب القائد الفارسي وهو اخو عبدالكريم الزند ان سوف يصادف ترحيبا حارا في تلك الانحاء للرابطة المذهبية ولخلو تلك النواحي من السلطة العثمانية . ولكن فشلت احلامه اذ سرعان ما تنبه وتر القومية الحساس . وكيف لا يغضب الدم العربي في تلك الانحاء المجاورة لذي قار وعرين ابن شيبان ، فتألبت عشائر المنتق برا ونهرا وطوقت جيوش الاحتلال وأنزلت بها الضربة القاصمة واسترجعت الثغر ووقفت سدا محكما . وهكذا حافظ العراق على قوميته وربما كان اكثر من الجزيرة نفسها لان الجزيرة في عزلتها وفي حياتها الاجتماعية تتوافر اسباب الرابطة القومية فيها .

أما العراق وهو مركز حضري مزدهم بالنزعات والدعائيات قد تعاقبت عليه القرون السود بتغلب الاعاجم من مغول وتاتار وترك و فرس ، وروم وفرننج خرج وهو يتوشح بعروبته القحة كأن لا يساوره شيء .

لم يصدع الرابطة القومية في العراق الا امر واحد وهو الانتقال من العصبية العامة الى القبلية الخاصة اذ توزعت الوحدة الى وحدات واصبحت الرابطة القبلية اقوى وأرص كما كانت قبل الاسلام وقبل دعوة التوحيد . واليك لوحة من اللوح القومية العراقية هي لوحة الشيخ الاجرد .

لقد تعاقبت الامارات في العراق فكانت لخفاجة في امارة آل شاهين ، وكانت لبني أسد كما ذكر ذلك ابن بطوطة، ولبني عبادة كما ذكر ذلك القاضي فضل الله ، ولبني معروف كما ذكرت ذلك عدة مصادر، ولعقيل كما جاء في مجالس المؤمنين للستري، ولربيعة ولآل سعدون .

اما بنو معروف فمبدأ امارتهم سنة 558 وبعهد المستنجد العباسي . نزل بنو معروف البطايح وامتدت منازلهم من (سورا) وهي اليوم المكان المعروف بالجربوعية الى بطيحة الغراف وفي هذه البطيحة اشتبكوا مع جنود الخليفة الناصر العباسي التي كان يقودها متولي واسط . وكان يقود بني معروف المعلى ابن معروف فتغلبوا على الجند وتمركزوا في بطيحة الغراف حيناً من الدهر وبقيت لهم الزعامة العامة حتى اتصلت بعبداً لله بن معروف فناهضه بنو عبادة وهم قبيلة عدنانية . كانت منازلهم في الجزيرة الغرافية وكشفوا بني معروف عن الغراف وطردهم الى سنجار من بلاد الموصل وتم الامر لعبادة في البطايح والغراف وذلك في عهد الزعيم سعيد ابن عبدالله العباسي، وكان قد تخلف عندهم من بني معروف شيخ زاهد منقطع عن الدنيا ومنكمش عن الناس وكان مع اعراضه عن لوث الدنيا واعتزاله ، قد أبى ان يشاهد الحيف والخسف من قبيلة عبادة وكان اجرد لا ينبت عارضاه واتفق ان اجتمعت ندوة عبادة للشورى في احدى المهمات وكان الشيخ الاجرد حاضرا الندوة وهم ان يشارك القوم في اجالة الرأي فاستخفوا به قائلين له : لا محل لرأيك بين الاراء اذ ليس لك ميزة الرجال .

يريدون نبت العارضن الذي يزين الوجه فتأثر المعروف من تلك المقالة واجابهم : عندي ما هو أبهى لوجهي واكبر زينة وهم ابناؤ قومي ورجالات رهطي الكريم . وبلغ به الضيم مبلغه فهاجر الى قومه في سنجار واستفزهم لتلك الالهانة التي لحقت به فنفروا رجالا وفرسانا واعادوا الكرة على قبائل عبادة وازاحوهم بعد ان اوقعوا فيهم . وبهذه الحادثة يزجل شاعرهم بقوله :

رخصت بنات عبادة وصارت تبيع الشنان

وبقيت النسبة الى سنجار في هذا الرهط من بني معروف حتى اليوم ، فيقول للفرد سنجري وللقبيلة سناجرة وهم اليوم ينزلون حول الشطرة وهم زعماء قبيلة عبدالقيس العبودة ..

اللوحة السادسة

1927

صدق الصحبة وتقدير الجميل

-1-

كان ابو العتاهية من ندمان الخليفة العباسي لا يفارق الندوة حضرا وسفرا. وكان يشدو في مجلس الخليفة الذي كان يجري عليه كل سنة خمسين الف درهم عدا الجوائز. ولما تزهد ابو العتاهية ترك الحضور في مجلس الخليفة وترك الغزل فحبسه الخليفة وضيق عليه وادخل السجن :

فقال اني لما ادخلت سجن الجرائم دهشت وذهل عقلي من ذلك المنظر الذي هالني ورمحت بطرفي انظر موضعا آوي اليه أو رجلا أنس بمجالسته ، واذا انا بكهل حسن السميت نظيف الثوب فجلست اليه من دون تحية لشدة ما انا فيه من جزع ومكثت مفكرا فانشد الرجل :

وصيرني يآسي من الناس واثقا بحسن صنيع الله من حيث لا ادري
تعودت درب الفر حتى ألفتة وسلمني حسن العزاء الى الصبر

فاستحسنت البيتين وثاب الى عقلي فقلت هل تتفضل - اعزك الله - باعادة البيتين فقال : ويحك يا اسماعيل، ولم يكتن ، ما اسوأ رأيك واقل مروءتك ، دخلت علي ولم تسلم ولا توجعت ولا سألتني مسألة الوافد على المقيم حتى اذا سمعت مني بيتين من الشعر استنشدتني مبتدئا كأن بيننا صحبة تبسط المنقبض. فقلت له :

اعذرني متفضلا فان دون ما انا فيه ما يدهش فقال :

واي شيء انت فيه ، انما تركت قول الشعر فحبسوك حتى تقوله وانت لا بد وان تقوله، اما انا فيسدعي بي فاطالب باحضار عيسى بن زيد والا قتلت، وهيئات هيئات لا ادل عليه ولو اني اقتل. فاطرقت خجلا فقال لا اجمع عليك التوبيخ

والمنع اسمع البيتين فاعادهما علي مرارا حتى استظهرتهما ..
ولم نلبث ان سمعنا صوت جرس الباب واقفاله فقام وسكب الماء عليه من جرة
احتفظ بها ولبس ثوبا نقياً استعداداً للموت ودخل الحرس والجند ومعهم الشمع فلما
قمنا قلت من اين انت اعزك الله؟ فقال انا حاضر صاحب عيسى بن زيد فادخلنا
على الخليفة .

ولما وقفنا بين يديه قال له :

أين عيسى .. ؟

وما يدريني أين عيسى .. ؟

ومن اين اقف على موضع عيسى وهو هارب منك ؟

لتدلي علي او لاضربن عنقك ..

اصنع ما بدا لك ..

وكيف ادلك عليه لتقتله . والله لو كان بين ثوبي وجلدي ما كشفت عنه

اضربوا عنقه ..

فضربت ..

وقيل ان حاضرا هذا كان صاحب احمد بن عيسى بن زيد المعروف بأحمد
المختفي وفي سبيله قتل .. ولكن ابا فرج الاصبهاني يرى صحة الاول .

-2-

كان نصير الدولة محمد بن بقية وزيرا لبختيار الديلمي وكان يبغض عضد الدولة .
واتفق ان تغير بختيار على وزيره ابن بقية ففقأ عينيه واستصفى امواله، كل ذلك
تزلفا لعضد الدولة وحمله مسمولا فطرحه عضد الدولة للفيلة ثم صلبه عند باب
داره وابتعد عنه الناس الذين كانوا يتصلون به ايام نضارته ونباهته، وقطعوا كل
علاقة لهم به خوفا من عضد الدولة الذي شدد النكير على كل من يتفوه باسمه .

ولكن محمد بن الانباري الذي حفظ الجميل جاش حزنه عليه وبلغ به الجزع اكبر
مبلغ ضيما على الادب وتفجعا على الاخلاق فخلد الفقيه الغالي بتلك العلياء :

علو في الحياة وفي الممات لحق انت احدي المعجزات

وهي اشهر من ان اثبتها للقارئ، خلت القرون ولا زالت نضرة غضة يزف على رؤاها ريحان القلوب ولم يشف الشاعر ذلك الجمر المتساقط من قمة تلك اللوعة التي قرضاها من افلاذ كبده دون ان ينشرها بين الناس توجعا على ابن، وتشهيراً بالادب الوفي، وعقيدة منه ان تلك القصيدة سوف تكون ثورة على الباغين.

انى يتم لابن الانباري نشرها وملء البلاد عيون فكتب نسخا منها ورمها ليلاً في شوارع بغداد موقعا بتوقيعه واختفى هاربا. وتداول الادباء القصيدة وبلغ النبأ عضد الدولة فطلب الرجل سنة كاملة وكان الطلب حثيثا ولما يظفروا به، ولكن ابن عباد الذي اهتز لتلك القصيدة ولتلك النخوة الادبية المطروحة بذلك الاديب الوفي تصدى لابن الانباري وبث الامان . فلما سمع ابن الانباري بامان الصاحب بن عباد قصده وقبل يديه وعندما دخل اليه استقبله ابن عباد محتضنا له وقبل ما بين عينيه وقبل فاه ثلاثا وانفذه بأمانة الى عضد الدولة. ولما مثل بني يديه قال له ما الذي حملك على رثاء عدوي فقال : حقوق سلفت ، وايام بيض مضت ، فخلع عليه عضد الدولة وقدر ما فيه من شمم وشيمة .

اللوحة السابعة

1928

الذكاء العراقي

كتب المهندس الانكليزي (ويليام كوكس) الذي وضع التصميم للسد الكبير على الفرات المعروف ب (سد الهندية) وذلك في اواخر العهد العثماني في العراق كتيبا تاريخيا موجزا للعراق مستمدا من مجاري الانهر القديمة ومواقع الحرث والرعي، وقد جاء في كتابه هذا انه وجد ملامح للذكاء العراقي لم يجد مثلها في دلتا النيل التي اقام فيها مدة طويلة. وعلل ذلك بان العراق وبالاخص الفرات انفرد بشيء لا يوجد مثله على ضفاف النيل ، وهو ان سقي الفرات يتصل من الجهة اليسرى بالجزيرة العربية فكانت مجاري المياه نزاعا مستمرا بين الفلاح والراعي . الفلاح يريد تنظيم الري والراعي يريد ان يتفلت الماء ويتبطح حتى تنبت الارض بالحشائش ويتكون مرعى . فكان الفلاح مع الراعي في نزاع دائم تعاطيا فيه شتى الوسائل .

وهذا الصراع اوجد حركة فكرية وانتباهة ذهن بقي اثرها الى اليوم، وهو ذلك الذكاء العراقي . واليك مظهرا من مظاهره :

كان الخصب عظيما في الحياض الزراعية التي تستقي نهر (بزر وفزر) الفارسي الذي كان يسقي كسكر وكورها. وبعد ان دثر ذلك النهر جرى بمكان النهر (الموقفي) الذي كانت بقايا فوهة الغراف قبالة كوت الامارة مارا الى مدينة الحي ، وكانت خصوبة هذه الحياض الزراعية بقصب السكر اكثر من كل نوع من المزروعات ، وكانت الجباية الساسانية تثقل الاتاوة على فلاح تلك الجهات . وكان الفلاحون خليطا من فرس وعرب وكان العرب يهبطون على كسكر من ذي قار

بطريق وركا .

وكانت حول تلك الاراضي الزراعية من جهة الغرب تلؤل رمل وارض واسعة لا تحرث وقد كسيت بالعشب لتصبح اجمل بقعة لغواة الصيد المترفين. واتفق ان يتوجه ركاب الملك الساساني الى تلك الجهات متصيذا . ويصادف الملك صيدا فيتعبه حتى ابعد عن حاشيته المشغولة بكثرة الصيد فيفر وينوشه العطش فيهم بطلب الماء حتى يقف على كوخ فلاح عربي ، واستقى وهو متنكر ببزة ما عليها شارة الملوك وقد استقبلته على الباب فتاة طيبة اللهجة ، عذبة الروح ، حلوة النبرة، نبيهة واعية، رحبت بالضيف ولما طلب منها الماء دخلت الكوخ وسرعان ما عادت ببراد مطفف بماء قصب السكر العذب . فتناوله وعب القدح حتى صك جنبه، وقد بدت عليه علائم الارتياح للقدح والساقى، فسأل الفتاة من كم قسبة اعتصرت هذا القدح فقالت من نصف قسبة فقال يظهر ان ارضكم كثيرة الخصب والانبات فقالت جيرى (بمعنى نعم).

ورجع الملك يتصيد والتقى بحاشيته فقص عليهم حديث الفتاة وقدها وارتياحه لهما . فاستنسبوا زيادة الضريبة على تلك الجهات . وبعد ان انتهت رغبتهم من الاصطياد عادوا الى عاصمتهم وفي الطريق رغب الملك في التعريج على كوخ تلك الفتاة للتلذذ بحديثها فانفرد عن الحاشية واقبل على الكوخ مستسقيا فاستقبلته الفتاة التي توسمت فيه انه رجل غير عادي ولعله الملك متصيذا وداخلها الندم على ما فرط منها من بيان بركة أرضهم فدخلت الكوخ ولكنها في هذه الدفعة تباطأت ثم خرجت بنصف قدح من الماء وكان الماء هذا محتاجا الى تصفية اكثر فسألها الملك عن الفرق بين هذا وذاك فقالت : انني احتلبت هذا من ست قصبات فلم تمنح الا هذا القدر الشحيح وسألها عن السبب فقالت :

اظن قلوب الملوك قد تغيرت على الرعية فارتفعت البركات . ودهش الملك من وقع هذا الحديث عليه واستعظم ما عند الفتاة من فطنة وذكاء ، فترجل عن جواده وتلاحقت به رفاقه وحاشيته وطلب من الفتاة ان تصدقه فقالت : انك استسقيتني اولا ولم احسبك الا عابر طريق كضه الظمأ فاستسقى . ولما ناولتك القدح استظهرت انك غير عادي عليك سيماء الامارة وشارة الملك بادية على شمائلك.

وقد عودنا ولاة امورنا على الجور والاستيلاء على انتاج اتعابنا فساورني الهم وعرفت اني جنيت على هذا الحي بما عرفتك عليه من البركة الزراعية ولما

عدتنا الان رأيت في ملامحك علامة الجور والعزم على تثقيل الاتاة فأردت ان
اعرفك شعوري وانتزع منك سوء النية واستل من القلوب رغبتها . فاستملح الملك
النكته وأعظم ذلك الذكاء واستثنى أهل ذلك الحي من الجباية.

اللوحة الثامنة

1929

الذكاء العربي

-1-

للحوادث فضل على التاريخ . فكم نجمة شخصيات لامعة ما كانت تشرق وضاءة لولا تلك الحوادث. تعال معي ايها القارئ نستعرض تاريخ الهاشميين فلا تجد أنت ولا أجد أنا الا تاريخ محنة وسجل بلاء ابتداء من القرن الاول للهجرة . كم شخصية لمعت في حلك القرون السود ، وكم من رائحة طيبة لهذا الملك المسحوق تعطرت بها أفواه الروايات. فلو محص ذلك التايخ لما كان الا ألواح شرف ونبل .. لقد مارست الحرب مدة قرون ، تضع اوزار حرب وتتشب اخرى. وهم بين قريع ومجالد لا اتجاوز بالقارئ اذا قلت اني مقدم اصغر لوحة رفعت لهم.

هذا ابو العزيز قتادة بن ادريس المتوفى سنة 618 للهجرة وقد كان مسعر حرب، بطلا جبارا، فيه فتوة وله طموح ، وكان بمفرده ثورة حمراء وهزة من هزات التاريخ ، ملك بلاد الحجاز سيفا فحسب له الخليفة العباسي الف حساب واستدعاه الى العراق ووعدته ومناه، استدرجه فأجاب الدعوة وسار بموكبه من مكة المكرمة الى ان بلغ حدود العراق من طريق الحج العراقي . وعندما قارب الصعود الى النجف مما يلي ظهر الكوفة خرج اهل الكوفة لاستقباله وكان في جملة من خرج في غمار الناس قوم معهم اسد مكبل في سلسلة من الحديد . فلما رآه قتادة ألوى عنان فرسه منكبا عن الولوج في الكوفة ومحولا وجهه الى جزيرة العرب قائلا : اني لا أدخل بلادا تقيد فيها الأسود . ورجع لفوره الى الحجاز وكتب الى الخيفة بما يدل على النفس التي بين جنبه :

بلادي وان جارت علي عزيزة ولو أنني أعرى بها وأجوع
وما أنا الا المسك في غير أرضكم أضوع وأما عندكم فأضيع

-2-

في مجلس ارتياح وطيبة يقف رجل على المعتصم قائلاً :
يا أمير المؤمنين اني كنت في عمورية (بروسة) واذا بجارية هاشمية من أحسن
اسرة ، لطمها عالج على وجهها فنادت (وامعتصماه) فأجابها وما يقدر عليه
المعتصم : يأتيك على الخيل البلق لنصرك؟ وزاد في ضربها . فتارت حفيظة
المعتصم وقال للرجال : وفي اي ناحية عمورية ؟ فقال الرجال : هكذا اشار الى
جهتها ويحول المعتصم وجهه الى تلك الجهة قائلاً :

لبيك ايتها الحرة . هذا المعتصم قد اجابك . ثم جهز بأثني عشر الف فرس من
الخيال البلق وتوجه نحو الاناضول وناجز الروم على عمورية ولما دخلها فاتحا
طلب الرجل الذي بلغه عن الجارية وقال له : سر الى الموضع الذي رأيتها فيه .
فسار به واخرج تلك المرأة من بيتها فقال لها : يا جارية اجابك المعتصم . وفي
هذه التلبية الجبارة وهذه النخوة الكبرى وما حوت من شمم . وضع ابو تمام
قصيدته الخالدة

السيف أصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
الى ان يقول
لبيت صوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

-3-

المأمون على ابواب طوروس مهاجما قيصر الروم وقد ضربت عليهم خيمة
القيادة المركوزة امامها الراية العباسية السوداء وهو في معسكره الضخم الذي
يشبه بلدا سيارا فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون واصحاب الطبول
واصناف الجند بالبزة العسكرية التي اختارها المنصور للجيش في عهده وهي اول
بزة عسكرية عربية . وقد رتب المعسكر تنظيما يشبه الهلال وفي وسطه قبة القائد
وحشايته ورايته وشعاره، وعلى الجانبين الميمنة والميسرة وامام الهلال كتلة

الطليعة ، ومن الورااء ممللة الساقاة، ساقاة الجيش في تلك الهياة العسكرية . يتقدم الحاجب الى المأمون بكتاب القيصر يلوذ فيه بالطاعة والخلود الى السكنينة طالبا المهادنة فرجع المأمون الى بعض حاشيته يطارحهم الرأي وكان ذلك البعض من عرق غير عربي فيشيرون الى المهادنة مهولين على المأمون مغبة المغامرة قائلين :

مال الخليفة عرب لا يستطيعون محافظة البلاد التي تفتح ولا يحسنون ادارتها . وهنا يتحرك الشمم في الدم العربي في عروق ذلك القائد العربي ويعتزم (ابن الرشيد) على الاعتصام بالعزة القومية ،مجانبة استعمال القسوة ، والعمال الذين هم من غير العرب وغير عرقه فيصرح بالخطة التي رسمها قائلا :
سوف اوجه الى العرب فآتي بهم من البوادي وانزلهم كل مدينة افتحها حتى اضرب الى القسطنطينية.

اللوحة التاسعة

1929

السيد عمران الحبوبي

في عام 1921 وفدنا على الحجاز في وفد من العراقيين فوجدنا الامر رخوا والحكم لا ظل له خارج أبواب مكة ، ولكن الملك كان يحلم بالرقعة الواسعة من بلاد العرب. وشددنا الحقائب الى المدينة المنورة . وكانت بين الملك الجالس في القصر العالي بمكة وبين قبائل حرب المنتشرة في السهل والجبل مشادة. كل من الطرفين يحسب ان الوفود على الحجاز زرع لها لانهم في واد غير ذي زرع. فكل منهما يريد الاحتكار لتلك الغلة . وكان للعشائر حق سراية وللعشائر توزيعة للحمولة ، كل قبيلة لها عدد مقرر. ولكن الملك يريد الاختصاص بحق السراية عن طريق اخذ حصة كبيرة من اجرة الحمولة التي يقدرها هو ويريد ان يقوم بسياسة تقريب البعض من القبائل يمنحهم زيادة في حصة الحمولة وتباعد البعض بتقليص حصتهم وفي ذلك ما فيه من الاثارة والاستفزاز.

وكنا لا نعرف شيئا من ذلك وجئنا للاستيزان بالسفر، وكان مع الاذن ان يتفضل الملك بفسح للاقامة في المدينة المنورة وكانت مدة الفسح لنا ثلاثة ايام . وقد كان ترخيصه لنا على مضض وارفقنا بسرية تخفق عليها الراية الرسمية ويتقدمها القائد ورجب الينا بسرعة العودة فانتشرت مواكبنا في محطة الشيخ محمود ثم تحركت القافلة بقطارات ممتدة، حرف من الابل يجر حرفا ، حتى كانت سطورا في البادية ... وسالت باعناق المطي الاباطح.

وكان سيرنا سرى ، لان شمس الحجاز لا تأذن بالتنقل نهارا وفي الصباح بلغ الركب منزل «الشعب» وتمت المرحلة الاولى فاخبرنا بوجود قتيلين في محملهما

ولما وقفنا على الجثتين قال القائد: انها فعلة سراق وارجو ان لا تتكرر. وقطع
الركب المرحلة الثانية وبلغ (وادي فاطمة) واذا بالرنه تعلو والبكاء يشير الى ان
سنة عشر من القافلة قتلى في محاملهم . فحملنا في وجه القائد واعتزنا العودة
الى البلد الامين وكانت غمزة تلتها همسة من القائد في اذني : اريد الاجتماع بك ،
ولما انفردنا قال اودعها عندك امانة في اباحتها هدر دمي .. ان البلية في انتسابنا
الى الملك ... وان لهذه القبائل رسوما من عهد قديم وقديم يسمونها «خوة» اي حق
الاخوة في السراية. وان الملك اغتصبها منهم فهو لا يريد الاعتراف بسلطتهم
ونفوذهم ولو اذنتم لنا بالنكوص وزودتمونا بكتاب تذكرون فيه الشكر والتقدير
وانكم سرحتمونا طواعية لانكم تريدون الجيش لا لخفارة القوافل بل لما هو اهم .
اما انتم فلا ضير عليكم، ان رؤساء القوافل يعرفون ما لكل عشيرة من اتاوة
تجمعونها وتدفعون لكل قوم حقهم وتسيرون بأمان . فصوبنا الرأي وحررنا
الكتاب وسيرنا الجيش واللواء والقائد واستبدلناهم بدراهم معدودة . وصرنا نستقبل
وجوها ونودع وجوها حتى بلغنا المرحلة الاخيرة «بئر الماشي».

ولاحت سرج المدينة المنورة فلم نجمع نفودا لعشيرة بن سليم لانا بلغنا اسوار
المدينة وبين الحداء والغناء والدعاء سمعنا ازيز الرصاص وقذحات البارود في
ذلك الليل الدامس، فانقلب الامن خوفا والانتظام فوضى واصطكت المحامل
وتناطحت الابل جافلة. يركب بعضها البعض ، ودوت جلبه المذعورين، وتساقط
القتلى والجرحى، وارتاعت المدينة فسدت ابوابها في وجوهنا .

وبعد الهلع والفرع فتحت ابواب السور فتدققنا اكواما في الشوارع . ولما بشر
الصبح تجمعنا على باب الحاكم العسكري الشريف «ابن منصور» وهو بدوي
خشن عاتبه او حاسبه احدنا بلهجة الغضبان فرد علينا :كلامكم وعر وعندنا او عر
منه. فقلنا اننا لم نجيء للمبارزة انما جئنا للنجدة والاخذ لنا ممن داهمنا مروعا
لهذه الوادعة الآمنة. فقال ان هذه القارعة فاجأتنا فامهلونا ثلاثا ... وبعد ذلك يكون
لكم ما تريدون ، قابلوا في اليوم الثالث الحاكم السياسي «الشريف شحاذ» تجدون
عنده زبدة المخض. ولا تذهبوا في كرايس بل اختاروا من يمثلكم لمقابلته .
ففارقنا ذلك البشر او ذلك الحجر وقد اختاروني لمقابلة شحاذ، واذا برجل الطيبة
ومثال النخوة والمروءة المتطوع للعون، والمتبرع للمساعدة ، شيخ وقور مشاء
للخير بعزم الشباب قائلا : طيبوا نفسا وانتعشوا ، فما بردت الحمية ، ولا ماتت

الشيم ، قابلوا شحاذا وانا اساعدكم وسوف يكون لمن روعكم الوهن والفضل فسألت عن هذا الجوهر النفيس وعن معدنه فقيل انه نبعة النجف السيد عمران آل الحبوبى . وهو وجه كريم من وجوه المدينة المنورة ومن انضاد البلد. وبعد ان روحنا بطيب الرجولة ، ونفحنا بهبة الشهامة ارفقتي بشبله الحسن ليكون دليلي على ديوان شحاذا ، فاوصلني الى قلعة الحميدية وانصرف. فولجت الى رواق كبير مديد «صالون» قد صفت فيه الاسرة وفي الصدر اريكة بجانبها قاصة «صندوق حديد» حدست انها مجلس الحاكم فجلست بالقرب منها واخذت رؤوس عشائر حرب تتوافد حتى حصل الاكتضاض في الجلسة وكل منهم يعتمد على بندقيته وقد صفت على صدره سطور من الخراطيش الصفر، والى جنبه سيف ليس فيه انحاء يسمونه «جنبية» . ويدخل رجل في كسوة من الحرير ، يلبس الكوفية البيضاء وعليها عقال مقصب، وفي محزمه خنجر مذهب ، وعلى صدره خراطيش الرصاص المصفوف .

اقتحم الديوان الى الاريكة وكان مجلسه الا على الاريكة التي ذكرتها، وبعد هنيئة نهض يخاطب الجمع قائلا : ان هؤلاء القادمين وفد الله ووفد الرسوم وانتم آل الرسول ، الا يتحتم عليكم ان تكرموا وفادتهم خصوصا وانهم زارونا غبا وعاودونا بعد الانقطاع الذي كان من جرائه ما كابدنا ، فهل من الجميل ان نقابلهم بالنار والحديد . ما أنكى وما افطخ. كيف نرجو ان تتوافد علينا الخيرات ونستمطر الرزق والذكر الحسن بعد هذه الفعلة ... يا لها من أنباء مخذلة ... اريد منكم ان تخبروني عن مرتكب الجريمة ، وتدلوني على المسيء لسمعنا . فنهض شاب وسيم ذؤابته تتدلى على صدره .

قال وهو يعتمد على بندقيته : انا ذاك يا شحاذا

قال : انت ... قال نعم

قال له ولماذا ؟

قال اريد ان يشم الشريف حسين رائحة بارودة بني سليم حتى يعلم ان البارود غير منحصر بقبيلة «اعبده» التي تطوعت واعانتته في حربه مع فخري باشا ... اريد ان يكافئها على حسابنا ويعطيها - «حقنا»- من المحمولة ؟ فقال له شحاذا :
يا ولد نهار : ما شأن هؤلاء الكرام في الخلاف بينكم وبين الملك حسين ؟ انا اريد

ان اخرجهم بسلام.

قال : لا لن يخرجوا حتى يوفي الشريف حقوقنا.

فقال شحاذ: يا محمد يا ولد نهار اني اخرجهم بهذا ووضع ابهامه على خرطوشه .
فقال له : تخساً يا حمار وعيش عايش فيه رسول الله لان اخرجتهم لاذبحنك
واذبحنهم ... هيا يا رفاق ...

فخرج وخرج القوم بأثره ، وبقي الخطيب شحاذ ... اما انا فقد قرأت الكتاب من
الفه الى يائه ، ورجعت لاصحابي لاقص عليهم النبأ ... واذا بمحمد ابن نهار
ورھطه قد سبقوني وانذروا القافلة بعدم الخروج من اسوار المدينة ، لكنهم قالوا
لنا انتم مثلنا ابناء عشائر فلا حرج عليكم فقلنا لهم ان القوم رفاقنا وتأبى التقاليد
والمروءات ان ننجو ونتركهم . فتمسكوا بقولهم ، وتمسكنا برأينا . ودار الحصار
خمسة واربعين يوما والسيد عمران ممتحن بمشكلاتنا يطلب الحل وينشد الفرج
واخيرا عرفنا ان بني سليم يطالبون بستة الاف جنيه فاخذنا نجمعها من الركب
لندفعها اليهم واذا بالسيد الحبوبي طافح بالبشر ويكاد يطير فرحا بعدما كان يتميز
غيظا . جاء مسرا الي بان الملك حسين او عز اليه ان يسلفه المطلوب ويدفعه لبني
سليم ليفسحوا لنا الطريق لان سمعة الحجاز مهددة اذا نحن جمعنا ودفعنا
«الخواة».

يقال ان البستنة بلغت من التفنن بالتركيب والتطعيم للشجر الوارف المغدق حتى
ان الجاني والقاطف يرفع رأسه الى الشجرة الواحدة فيرى في جانب منها قطوفا
دانية وفاكهة ناضجة وفي الجانب الاخر فاكهة اخرى اعذب واطيب . وهكذا آل
الحبوبي شجرة مباركة واحدة مغدقة ممرعة جعلت لها المزايا في كل جانب
انواعا من الفواكه والثمرات. ففي جانب السيد السعيد وقد قدمنا لك شيئا من
فاكهته، وفي جانب اخر السيد عمران ونحاول ان نقدم لك طبقا من ثمراته ، انه
شجرة وارفة تقيء في ظلالها هامات الامة وانضاد البلد نقلت من مشتل النجف
الى بستان المدينة المنورة اصلها ثابت في «طيبه» وفرعها في سماء المجد
والنبل ... انها شجرة برية صلب عودها.

وغريب امر هذه الشجرة المباركة التي تحولت من مشتل النجف الى بستان حائل
ومنها الى رياض المدينة وهي هي تروع وتضوع .

ان السيد عمران الحبوبي جمع المجد من اطرافه مستمدا من مزايا النجف ومن مواهب حائل ومن طيبات المدينة المنورة فكان عمراننا من النبل وعمارة من الكرامة وعميرة من الطيبات.

نصب نفسه للحوائج واذا به مال المسيف وعنبر المستاف، ليس بين ماله او جاهه وبين المحاويج الا ستر رقيق شفاف . وللسيد عمران الرأي الناضج والفكرة النافذة ... انه معاود للصواب بجانب للخطأ، فهو تارة يغرف من بحر واخرى ينهل من عذب. يرى الغاب من العتاب خيرا من الطري ، والتأخير في اللوم افضل من التقديم. تزدهم عليه الاسئلة وتتكاثر الحاجات فلا يكون في أجوبته ازدحام بل أناة وروية. تجده قريبا من الراغب بعيدا عن الناصب، حديثه وشي المطارف ينتشر وينتشر معه البشر والبشاشة، طلاع لمهمات الامور في كل غدوة وروحة، صعاد الى قلل المشاكل ، وثاب في فجواتها، عداء في سوح المكارم ليس ماء معروفه بوشل، ولا تمره بدقل، مقصود في كل فج عميق، نضر العود ، طيب الروح ، اديب اللسان ، شريف النفس ، انه بحر والبحر كثير العجائب ، اقام بين جمهرة كثيرة من عقارب واقارب وهم ينزعون الى الشر وهو يداورهم الى الخير ، دائما يخاطبهم بمأنوس الكلام ويترفع على مرذوله ، قوله فصل وفضله جزل، مجبول على الجميل بالفطرة فلا يحتلب الحسنات احتلابا ولا يلتمس المكرمة التماسا . انه يفرش للطف وينزع للمعروف بانتشاء لا يألف الزهو، وابتسام لا يعرف القنوط .
رحمك الله يا ابا الحسن لقد كنت زاد المسافر ولهفة الحاضر ، كنت الغوث والغيث حديثا للمسرح ونقل للندامى ، كنت السلوك والتعلة ... وكنت الاب والعم والخال والعشيرة، وكان وجهك الحبيب الكريم الخصيب ، طبت وطاب ثرى حواك ...

اللوحة العاشرة

1929

أعمدة النور

لا اريد باعمدة النور تلك التي تنهض على الطرقات لتطرد الملل، ولا اريدها تلك الرؤوس المنورة المرفوعة في المحطات بين جزيرة العرب والريف العراقي تلوح للساري بالهدي والارشاد فيأنس بنورها الهابطون من من البادية الذين كانوا يرون العراق سوادا . اما اليوم فلا يرون الا سطوعا شاملا . لا اريد هذي ولا تلك لانها تفيد العين فقط، لا تفيد العقل انما اريد باعمدة النور اولئك الافذاذ من الهداة الذين سطع بهم التاريخ ونوروا الدنيا بشموع الفضيلة وقناديل البشر. وقديم عهد النجف باعمدة النور تلك المدينة تعهد مجدها مجددا اثر مجددا. لا تتناول هذه اللوحة كل اعمدة النور التي نهضت في النجف في عهد العلامة شرف الدين بن علي النجفي، واحمد بن عبدالله الغروي ، وغيرهما من اعلام القرن الثالث للهجرة . ولا من عهد شيخ الطائفة ابي جعفر ابن الحسن المعروف بالطوسي ، وتلك السرج التي شقت انوارها من القرن الخامس الى القرن الثالث عشر اذ جاء دور المهدي بن المرتضى بحر العلوم والشيخ جعفر الكبير ، وابنه الشيخ موسى بن جعفر والشيخ محمد الحسن والشيخ مرتضى الانصاري ، فان البحث عن الاعمدة يحتاج الى اكثر من موسوعة ، انما احاول شيئا عن شاهدت من اعمدة النور وهي : 1 - الزعيم محمد تقي 2 - السيد السعيد

1- الزعيم محمد تقي

هذا عمود كبير من اعمدة النور نهض في سامراء كما نهض سلفه الزعيم الخراساني .

وعندما فرغ العراقيون من طغمة الاتحاديين الاتراك ذاقوا الانكليز فلم يستيسغوا طعمهم المر وكان ظلهم ثقيلًا ولا تحمل غطرتهم ، تلك الغطرسة التي اضاعت عليهم الطاعة في العراق. وبدأ العراقيون بتحضير الوقود للثورة ، فكانت اجتماعات تلتها احزاب وعندما اخذ المفكرون بتنظيم العمل كانت الرابطة الدينية في العراق اقوى رابطة، ورجال الدين كانوا قد تدارسوا الحركات السياسية ومكنوا منها مما مارسوه من الانقلابات التي مرت عليهم، فصبغ المفكرون السياسة بصبغة الدين ومدوا ابصارهم يفتشون عن الزعيم فوجدوه في شخص ابي الرضا الشيخ التقي الذي كان منكمشا في سامراء وسرعان ما حملوه الى كربلاء بلد التضحيات والمطاف العراقي بلد التجمعات وحالا كثر تهافت الساعين من سائر الانحاء من العراقيين انقيادا لامر الزعيم وتنفيذا لخطه. لقد كان القائد المحنك والزعيم المتثبت المتحلي بالورع والكمال الانساني . مثلت بين يديه فوجدته مذرفا على الثمانين وقد احناه ثقل السنين وتوجه وقار الشيب المهيب وبيض وجهه الكريم غبار الحوادث ، وكان يدبر الامر بحزم وعزم ويدير الحركة بالحق والايمان ... انه ينوء بمفاتيح المشاكل وثقيلات الشؤون راغبا في الخير العام تلك الرغبة الصادرة عن ضميره الطيب النقي. لقد استوحى رأيه وعلمه وعبقريته فافرج دستوراه في كلمة جامعة بتحفظ واداء كامل، هي فتواه واليك نصها الكريم :

«المطالبة بالحقوق واجبة على كل العراقيين ويجب عليهم مطالبتهم رعاية السلم والامن ويجوز التوسل بالقوة الدفاعية اذا امتنع الانكليز عن قبول مطالبتهم...»
وثار رحمه الله لتلك المطالبة بالحق مضحيا براحته وصحته وولده ولبث قائما على القيادة حتى رجعت نفسه المطمئنة الى ربها راضية مرضية فمضى عن عمر محمل بالصالحات من تفكير وبحث وجهاد.

2- السيد السعيد

وهو السيد محمد سعيد الحنوبى العمود الثاني من اعمدة النور التي اهتديت بضوئها وقد رسمته علما عراقيا للزعامة العلمية والادبية والاخلاقية، والبطولة

التي شهدت له بها مواقف الزحف المقدس في ارباذ (الشعبية) وتحت أثلاث
(البرجسية) ابان الحرب العامة الاولى، رسمت كل ذلك في اللوحة الاولى من
هذا الكتاب لوحة الصلابة في المبدأ.

اللوحة الحادية عشرة

1930

أبو محجن الثقفي

«الطائف» جنة من جنات البلاد العربية ، مأوها عذب وهواؤها عذب ، تزهو بخضرة زروعها ووفرة فواكهها ، بلاد ثقيف الذين كان شموخهم كشموخ جبلهم، وكانت الطائف مصيفا لعرب الجزيرة وخصوصا جبل غزوان الذي هو اطيب مكان في الطائف، وكانت الكروم مغطية طرق المارة وفي اغصانها العنب والزبيب وكانت حصيلة ذلك الزبيب اكواما ونثارا على تلك الارض التي تراها سوداء من ذلك النثار. وان سليمان بن عم الملك عرج في حجه على الطائف ولما لاحت له اكوام الزبيب فظن ان اراضي الطائف حرارا تلوح من بعيد ، وهي الاراضي البركانية السوداء، ولم يحسب ان الارض سوداء من الزبيب ، وكان شاعر الطائف يقول في فتيات ثقيف

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وقد عرفت ثقيف اهمية طائفها فبالغت في منعته فشيدت له الحصون واحاطته بسور متين ، وفي مناعة الطائف ينظر الشاعر بقوله :

منعنا ارضها من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف

والطائف اكسب ثقيفا حياة ممتازة باجتماعياتها وثروتها وصارت تشعر بتفوق وعظمة، حتى انها كانت تهتم بمنازعة قريش في امتيازاتها ، وامتنعت عن الدعوة الاسلامية فلم تسلم الى العام التاسع من الدعوة، وكانت الطائف لكثرة عنبها وزبيبها تصدر الخمر الى نواحي البلاد العربية وكانت بلاد الشام سوقا من اسواق ذلك الخمر. وان الرونق والطيبة والبركة وجودة الحاصل وخمرها الممتاز قد اكسبت اهل الطائف خصالا اربعا: عمل الصيرفة في التعاطي بالربا لوفرة المال

عندهم وقلته في نواحي الجزيرة، والخصلتان الثانية والثالثة اشاعة الغزل وشرب الخمر الناشئين من الترف وحب النساء، ولذلك كان من شروط النبي في دخولهم في الاسلام صلحا : ان لا يزنوا ولا يرابوا اما الخصلة الرابعة فهي المروءة ، وهذه تحتضن خصالا عديدة منها الشجاعة والكرم اي بذل النفس والمال ... اما عنوان لوحتنا ابو محجن فقد احتفظ بثلاث وجانب الرابعة ... احتفظ بحب النساء وشرب الخمر والمروءة وتجنب الربا . فمن شجاعته ومروءته ما ستعرفه عن الموقف يوم القادسية وما يخبرك به في قوله :

لا تسأل الناس عن مالي وكثرتهم
وسائل الناس عن حزمي وعن خلقي
القوم اعلم اني من سراتهم
اذا تطيش يد الرعدية الفرق
قد اركب الهول مسدولا عساكره
وأكتم السرفيه ضربة العنق

واما الغزل والشرب فيظهر انه عصم نفسه منها اولا فلم نسمع عن معاودته لها، في عهد رسول الله، ولكنه عاد اليها وعاد باصرار في عهد عمر ولم ترعه صلابة عمر وشدته في الاسلام بل زاده ذلك اندفاعا تحاشيا من ان يقال ان الخوف من الحد حمله على الامتناع وبالغ في الاقبال عليها .

اما موقفه من الغزل فقد مد بصره الى امرأة من الانصار تسمى «شموس» وهي محجبة ومصرة على التمسك بالحجاب فكان من شدة محاولته رؤيتها ان رضي ان يؤجر نفسه ويعمل في حائط بستان كان بجانب منزلها فيطل عليها ويقول :

ولقد نظرت الى شمس ودونها
حرج من الرحمن غير قليل
ومن قوله في الخمر :

ان كانت الخمر قد عزت فقد منعت
وحال من دونها الاسلام والحرج
فقد اباكرها صرفا وامزجها
ريا واطرب احيانا وامتزج
لقد احب ابو محجن الخمره وولع بها كما يظهر ذلك قوله :

اذا مت فادفني الى جنب كرمه
تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في الفلاة فانني
اخاف اذا ما مت ان لا ادوقها

واصراره على شربه هذا انتهى به ال تلك المعجزة التي اريد تسجيلها في لوحة من اللوح التاريخية. لقد شرب ابو محجن وكرر عمر، وتعددت مرات الشرب

ومرات الحد. فلما رأى عمر تصميم ابي محجن قرر نفيه فنفاه مخفورا بحرس
يحافظ على ابي محجن من ان يهرب، وقد اوصى الحرس ان لا يتركوا ابا محجن
وان لا يصحب سلاحا، وقد أثر هذا المنع في ابي محجن اكثر من النفي فتحايل
على الحرس واخفى سيفه في غرارة مملوءة بالدقيق. وعندما بعد عن المدينة
تمكن من التخلص من الحرس لكنه كان يخشى العودة الى المدينة لان فيها درة
عمر فيم صوب القادسية. وتدفعه النخوة وما فيه من شجاعة وشهامة الى المغامرة
في اهم ميدان ليشارك في اعظم حشد وتجمع لبني قومه في القادسية . ويهتم عمر
بامر الثقفي ويتقصى اثره ولما بلغه انه توجه الى القادسية كتب الى القائد سعد
بحبسه. ويصل الكتاب قبل وصول ابي محجن. وعندما وصل امر سعد بحبسه في
قصر العذيب، وقيده بالحديد . ويتوسل ابو محجن ان يقدم الى الميدان فيرده سعد .
وبلغ سمع ابي محجن استعداد الحرب فينشد بحسرة وجزع:

هلم سلامي لا ابالك انني ارى الحرب لا تزداد الا تجاريا

كفى حزنا ان تطعن الخيل بالقنا واترك مشدودا علي وثاقيا

واتفق ان تشهد يوم القادسية سلمى بنت حفص التي كانت زوجة المثنى بن حارثة
وبعد وفاته تزوجت القائد سعد ، وكثيرا ما شاهدت الحرة مواقف المثنى
ومناجزاته للفرس وشاركته في احلامه وامانيه المحفزة. ولكنها يوم القادسية
ابصرت الخيل تنطح بالخيول والسيوف تتخالف بين الفريقين وسعد متوعك قد اطلع
رأسه من اعالي قصر القادسية يشرف على المعركة فصاحت سلمى «وامثنياه،
ولا مثنى للخيل» صرخت العربية والى جانبها ابو محجن الثقفي يسمع استفزازها
فيهتز بلوعة وحماس ويتوسل اليها راغبا ان تطلقه من قيوده وتمكنه من فرس
وسيف ليشهد المعركة ويشارك في المحنة ويأخذ بنصيبه من المجادة، قاطعا على
نفسه عهد الشرف القومي ان يعود الى قيوده وحديده اذا وقفت الحرب وهو سالم.
فتنطلق الحرة وتدفع اليه فرس سعد البلقاء ولامة حربه ... ينفلت ابو محجن الى
حومة الميدان فأبلى البلاء الحسن . وبعد ان شاهد ظفر العرب رجع الى حديده
وقيوده في قصر العذيب طارحا ما استلمه من لامة. واخبرت سلمى سعدا بما كان
من امرها وامر ابي محجن الثقفي . وللحال يطلقه سعد من السجن ويعاهده ان لا
يحدده بعد هذا ان شرب الخمر وهنا تظهر معجزة الشهامة والمروءة فيقول ابو
محجن :

ايها الامير كنت لا اترك الشرب مخافة ان يقال اني ارهب الحد ، اما وقد تلطفت
بانك لا تحدني على شربها فاني لا اشربها ابدا.

اللوحة الثانية عشرة

1931

التقاليد العربية

للعراق حضارة وبداعة ، فالمدن والقرى والارياف هي العراق الحضاري، والبادية هي العراق البدوي. ومنذ القرن العاشر للهجرة افترقت بادية العراق عن حواضره في الوضع السياسي والاداري، فالعراق المتحضر كانت تتنازعه سلطتان : الحكومة التركية في المدن غالبا والمشخة للقرى. واصبح مرتبكا منزلا بين السلطتين.

اما البادية العراقية فانها موطن الاهل الخالص وباب الرجال الصالح بقيت عربية بحت لم تطأها قدم الاجنبي، ولم يجاذب السلطة العربية فيها مجاذب، وبقيت الراية العراقية في بادية العراق عالية ومحترمة بين امراء الجزيرة. وكانت امارة بادية العراق لزعيم بني خالد، تلك العشيرة التي كان نفوذها يمتد من البادية العراقية بادية السماوة الى اليمامة في نجد .

ثم كانت لخفاجة ثم لخزاعة ثم لآل سعدون، وفي اواخر القرن الحادي عشر للهجرة اشتهر بامارة بادية العراق الشيخ عبد الواحد الكعبي وكانت له راية العراق في باديته وله سراية الحاج العراقي الذي كان يتمتع بحمايته في جزيرة العرب . ووهذا الشيخ يستند على قوة قومه كعب وحلفائهم خزاعة ، وله ذكر نابه بين رجالات القرن الحادي عشر في العراق خصوصا عند ادباء الفرات في ذلك العهد وقد حفل بناحية كبيرة من اثارهم الادبية ، وله آثار عمارة قائمة حتى اليوم في مدينة النجف كالجامع الواقع في سوق الصاغة من السوق الكبير وقبره بجانب ذلك الجامع .

وأخر راية عراقية في البادية هي راية آل سعدون وكانت في آخر ايامها الزاهية بيد الشيخ سعدون بن منصور بن ثامر بن سعدون الكبير، وكانت لها حقوق

محترمة عند كافة عرب الجزيرة . وهكذا بقيت البادية العراقية وحدة غير مجزأة بتجزئة الامارات والمشيخات في العراق الحضري، وخضعت للمنتفق من طفوف هيت الفلايح الى الكويت والرياض. فالشيخ ثامر السعدون تقوم قيامته عندما سمع ان عادية من بدو الجزيرة عدت على بادية العراق ، وفي يوم من أيام العرب بلغه ان جريدة من خيل الوهابيين النجديين اغارت على بادية هيت وروعت بعض الاحياء العراقية فما كان منه دون ان ينهد بخيله ويقطع خط الرجعة على المعتدين ويضربهم الضربة القاصمة .

وبادية العراق كغيرها من بلاد الجزيرة تكثر فيها في الشتاء والربيع الغارات والوقايح بين القبائل التي تراود تلك البقاع . ففي عهد ناصر السعدون المعروف عند عرب الجزيرة ب (الاشقر) صالت الراية العراقية على بعض احياء عنيزة . وبعد الاشتباك تغلبت وامتلكت من الماشية والبيوت وكانت غزوة رابحة اثرت فيها رجالات المنتفق من كثرة الغنائم وركزت رايتها في وسط تلك الاحياء النهرية . ويضرب رواق للميد ناصر وتحتشد عيون العشيرة ومسايرها وللنادي السعدوني ادب ومزايا جلييلة لا زالت نوادي عمائر المنتفق مطبوعة بطابعها، ذلك الطابع الذي جعلها تمتاز عن سائر نوادي الريف العراقي.

أجل بينما ذلك النادي في هالة من الوقار راكس في سكوته وسكونه الرتيب المهيب واذا بفتاة جميلة متجلبة بأجمل بزة تتخطى الرؤوس وتتوسط النادي غير هيابة ولا وجلة. فأكبر رجال المنتفق ذلك المنظر وطأطأوا رؤوسهم لان الشيوخ من آل سعدون متشددون بحجاب المرأة ، وديوانهم تنهيه الرجال فكيف تتخطاه امرأة متبرجة بزيتها. حادث مريع ليس له مثل في نوادي آل سعدون فيطأئي ناصر برأسه ويزجر الفتاة زجرة تبلغ اقصى الحي قائلا :

ما شأنك ؟

فتجيب برباطة جأش وتماسك :

يا اشقر الله في تقاليد العرب

ماذا تعنين ...؟

اني فتاة غريبة من اهل هذا الحي وقد خطبت لفتى من فتياه فكان الزفاف البارحة وصبحت الحي غاراتكم وسوف تقول نساءالحي هذا من شؤم العروس ويتطير

مني ... فاناشدك الله بتقاليد العرب راغبة اليك ان تأخذني معك فاني لا استطيع
البقاء . ويخشع الشيخ لذلك الصوت الرقيق ويقدم ذلك الاحتجاج الادبي الصارخ،
ويعطف عليها بحنو الوالد قائلاً :

ارجعي يا عفيفة الى خبائك فسوف اجعلك ميمونة مباركة ... انا لا نهتك الستر
ولا نزعج حلائل الكرام . وينادي مناديه في غزاة المنتفق ان اتركوا كل غنائمكم
حرمة لهذه الفتاة.

ومنحها من حاله الخاص الشيء الكثير وطوى مخيمه راجعا بالمنتفق كما جاءوا
فارغين من كل الغنائم الا من الشيم والحرص على تقاليد العرب .

اللوحة الثالثة عشرة

1931

الاحرار

كان لزعامه مكة صراع في الافضلية بين البيت الهاشمي والبيت الأموي . واجلى مظاهر هذا التفاضل الذي انقلب الى اهم الاحداث ما كان لقريش في مكة المكرمة قبل الاسلام. وتلك القبيلة وذاك البلد تم لهما ما لم يتم لسواهما مما جعلهم القدوة والقبلة وجعل افئدة من الناس تهوى اليهما. وكان مركز التفاضل بين البيتين ماثلا في التاريخ . ففي التاريخ الجاهلي صور عديدة لذلك التسابق. لقد كان البيت الهاشمي بيت الفضيلة وبيت المزايا والعواطف السامية متحليا بالمناقب متمسكا بالمبادئ الفاضلة، النبل والشرف ، مطهرات نفيات ثيابهم، والبيت الاموي بيت مادة وفخفة ، مادية تضخم في المظهر ودالة في الهيئة وتبجح في المكانة، كل مظاهرهم قساوة وصلابة . فكان النزاع بين البيتين نزاع القوة الادبية والقوة المادية كل منهما يجذب اليه الزعامه بما عنده من اختصاص ، والعرب في اخلاقهم تقدر الفضل واحترام الادب اكثر من تقدير النشب واحترام المادة، وكان للنبل والشرف عندهم مقام اعلى من مقام السلطان والذهب ، وبقي البيتان يتجادبان الظهور والاثرة حتى اذا سطعت معجزة النبوة في الافق الهاشمي انهزمت معنوية الامويين وانسحبوا مخذولين ولكن بعد ان رموا آخر سهم في كنانتهم لمصارعة الهاشميين. لقد غطت موجة الفضائل مدخنة الامويين فمد ذلك البيت وما كان له من الجاه العريض فدخل آله حظيرة الاسلام فخذلوا وطأطأوا يحملون شارة «الطلاق» . ولكن الحسد المتأكل لم يزل يحصد في صدورهم وكان بين البيتين داء دوي ظهرت بوادره في مواطن عديدة على عهد النبي وزمن الخلفاء.

وآخر مظهر لذلك ايام عثمان ، يمر الكفيف ابو سفيان على قبر حمزة بن عبد المطلب فيركله برجله قائلا : انهض يا عمارة ان الامر الذي تجالدا عليه بسيفنا

اصبح العوبة بأيدي صبياننا .

وفي عهد عثمان وجدت أمية منفذا فولجته وعاد الصراع التاريخي ولكن باسلوب جديد . اصبح النزاع بين دولة ودين وبين سياسة فيها ما يجوز وما لا يجوز وبين مبادئ راسخة وقانون مقدس لا يحور ولا يتبدل. العلوي يرى وجه الحيلة ودونها حاجزا من مبادئه وتقاليده ، كان العلوي حريصا على الجامعة عاملا على الارشاد مبلغا ، رسالة الانسانية الديمقراطية والاشتراكية لامعة في نظمه وقوانينه، فلا حيازة اقطاعية ولا تفاخر ولا تناز، الحكم لله والفيء للمسلمين والارض لمن حازها وما فتحت عنوة فهي مشاعة للامة.

فكان الموقف يتطلب تضحية كبرى واحتجاجا يدوي في مجاهل التاريخ حتى تسمع الاجيال المقبلة صوت الحق، فالدفاع الشرعي يحتاج الى اكبر موقف من اكبر شخصية بحجة ساطعة وكان لزاما ان تصطمم القوة الاموية المادية الرجعية بالقوة الروحية ، قوة الحق والايمان . ولا بد من صدمة عنيفة تصدم القوة الاموية صدمة تهز العالم هزة مستمرة لتقع جذور امية ولو بعد حين وترفع قباب الهاشميين رفيعة رهيبة.

وكان لا بد من ثورة شخصية عظيمة في يوم عظيم. ولما عري الموقف وشعرت البقاع من الكفوء الذي يكون رمزا للحق الا من الحسين ابن علي . ومن اولى من فرخ محمد في الذب عن الحوزة، انه الشخصية العظيمة التي تنتظر التضحية العظيمة . لقد كانت كل مواقفه في الطف وما سبق الطف، مواقف مملوءة بالبث والايقاز في حجة عرباء ودليل دافع فلم تمر اسابيع على مجزرة الطف الا وكان الدوي عاليا بالثار حتى اقتلعت امية ودولتها في الشرق. ولم يمجد التاريخ العربي موقفا كما مجده يوم الحسين . لقد انكشف الواقع وبطل الخداع ووقف الحسين في طليعة الاحرار من الاهل والاصحاب ، ولم يبق للمناجزة الا سواد ليلة فخطب قائلا :

اما بعد فاني لا اعلم اصحابا اوفى من اصحابي، ولا اهل بيت أبر من اهل بيتي، وقد اذنت لكم فانطلقوا في حل من بيعتي ، هذا الليل غشيمك فاتخذوه حجلا . ان القوم لا يطلبون غيري . فقال اهل بيته ولم نفعل ذلك لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك . وقال ابنه الاكبر : ألسنا على حق ؟ فقال ابوه : اي والذي بعث محمدا بالحق . فرد عليه : اذا لا ينالني بالموت وقع علينا ام وقعنا عليه . وجاءت نوبة الاصحاب

فامتنعوا عليه واجابوا بابلغ ما تكلم به الاهل وقالوا : نحن نتقدم المعركة حتى لا نرى هاشميا مخضبا بدمه. وأبى الاهل قائلين : بل نحن نتقدم لان الحمل الثقيل لا ينهض به الا أهله.

ومن غرر ذلك اليوم ان الحسين لما استشهد اصحابه وعزم اللحاق بهم أتى الى مخيمه وطلب ثوبا يجعله تحت رداءه قائلا :

ان الاعداء سوف يسلبوني بعد القتل واني لاكره ان ابقى عاريا ، فاتوه بثياب فنفر وقال : لا ، هذا لباس من ضربت عليه الذلة ، فأتي بثوب غيره فلبسه .

اللوحة الرابعة عشرة

1931

لورنس وطلال الجريديني

ان كتاب الاعمدة السبعة لمؤلفه لورنس، ذلك الرجل الانكليزي في صميمه، العربي في هندامه ، قد احتل اهم مقام بين الكتب الانكليزية التي شرحت ما يعنيه العرب وما تستهدف ثورتهم الاولى . انه كتاب غني في موضوعه، وعميق في اهدافه وابحائه، وان كاتبه غريب في اطواره ومظاهره وخلاعاته، تحسبه غافلا ولكنه الواعي . ان له مرونة انتشرت في الاوساط بكل هدوء انتشار الزيت في النور ، جبار يغمس يديه الى المرفقين بالدم ، ومتصوف يتلفح بمسوحه فهو كالجزار يذكر الله ويذبح . لقد استغل اثنان ما عند العرب لنصرة قومه ... انه انكليزي لحما ودما وهدفا وطموحا ... انكليزي من شعرات رأسه الى اظافر قدميه ولكنه يدعي الوقوف بازاء الاهداف العربية ... يا له من خادع ومخدوع . تراه ينوه بفيصل وينتقص الحسين وعليا وعبدالله وزيدا ، انها مشاعر متضاربة ، مشاعر خيرة وغير خيرة ، تغطي شرورا رهيبية. يدعي انه جاء ليفتح آفاقا جديدة للعرب ولكنه بتسلل وخداع يسد الافاق في وجوههم. ان كل صفحات كتابه غبار ودخان ، صفحات تنطف بالدم وتعبق برائحة البارود وبرغم ذلك فقد تطفح على البعض من تلك الصفحات شطحات صوفية ... انظر الصفحة الاولى وانظر صفحة 359 و 396 و 397 وانظر قبلها الصفحات 387 و 388 و 389 ترى العجب من هذا الدليل التائه .

ولقد جذبتني صفحة واحدة من هذا الكتاب انها لوحة من اسمى اللوحات التاريخية وهي لوحة شهامة طلال احد مشايخ الدولة في حوران وزعيم بلدة طفس واليك نص النبأ:

يقول لورنس :اخبرنا الاعراب بان فرقة رماحة جمال باشا قد دخلت طفس وما كدنا نطل على القرية حتى تأكدنا صحة الخبر من رؤية النيران المشبوبة وسماع الطلقات. ومن مكان عال شاهدنا العدو خلف البيوت ولدى رؤية الفضايع اطلقتها صيحة وحشية كانها ناقوس الهول يدوي في السكون الرهيب على تلك الهضاب العالية، يا له من منظر قتلى وجرحى من نسوة وشيوخ واطفال وخراب ودمار وهول وفجائع فصرخت يا للرجال لهذا الهول ، وسرعان ما هب الرجال كالاسود الغاضبة يشدون في اثر العدو ويصبون جام غضبهم . اما طلال الذي رأت عيناه ما حل بابناء بلده فقد كان يئن كالنمر الجريح ويرفض ان يكلم احدا منا والقى نظرة كلها غضب وكأنه يبحث عن المجرمين وما كان منه الا اسدل كوفية على وجهه وضغط على عنان فرسه وقد توقف اطلاق الرصاص من الجانبين فالجميع ينظرون الى طلال وكأنه يقترب من العدو حتى صرخ صرخة الحرب . طلال ... طلال ... فتساقط عليه زخ من الرصاص مزق احشاءه وخر صريعا هو وفرسه . ويشاهد عودة (ابو تايه) هذه المأساة حائقا مزمجرا قائلا رحمة الله عليك يا طلال سيدفعون غاليا ثمن قتلك. فهز اللجام مزمجرا ولكز الفرس واندفع نحو العدو. لقد استيقظ اسد القتال في نفس عودة الذي تمكن بمناورة وبراعة ان يجر العدو الى ارض الريف وقطعه ثلاث قطع وبسرعة افناها واحدة واحدة حتى ابيدت عن بكرة ابيها ... وهكذا تمت حماية البلد - طفس- اخذا لثأرها.

اللوحة الخامسة عشرة

1932

النعمان بن مقرن

ليس لي صدر من علم النفس ولكني اشعر ويشعر معي كثير من المفكرين
بظواهر للنفس مدهشة صعب سبرها ، وغير يسير تحليلها. واكبر تلك الظواهر
النزعة الخاصة التي رافقت كثيرا من النوابع فكانت السبب لظهورهم بلوحة
سامية من الالواح التاريخية، نزعة للانسان داخلية ملحة تفرغه في قالب خاص
وتهيؤه لذلك المظهر مستوعبة كل رغباته وطابعة كل احلامه بطابعها فيصبح
وكأنه مخلوق لها دون غيرها اذا وجه لها كانت خطوته شوطا واذا صرف عنها
ترطم وتحطم. نزعة او ميل او رغبة لهذا ان يكون عسكريا ، ولذلك ان يكون ادبيا
ولغيرهما ان يكون فلاحا ، نزعة في المرء الهمت بها نفسه فهو مدفوع اليها بقوة
خفية، واوضح مظهر لتلك الرغبة ما كان للنعمان بن مقرن المزني فقد كانت
روحه العسكرية بجبلتها تنازعه وتدفع به لمسارح البطولة ومقام الرجولة ، وكلما
وجه الى سواها نكص ونكس شاعرا بما يصدده ويصدفه . لقد راجعه عمر بن
الخطاب يوما قائلا له : اريد منك ان تكون في خدمة الامة فقال اما جابيا فلا واما
غازيا فنعم. ولكن حاكم العراق جعله عاملا على كسكر الكور الفارسي الذي كان
قبالة واسط الحجاج . فكتب الى الخليفة يبيته هو اجسه ويشكو اليه كبح الرغبة قائلا
: ان مثلي ومثل كسكر مثل الرجل الشاب الى جنبه مومس تلون وتعطر فانشدك
الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين حتى اوفي
الخدمة .

ان الامة الموفقة ترزق قادة وزعماء يسيرون في ضوء الحكمة التي تسدد الخطى
وتنسق العمل فتودع كل عمل الى من يحسنه وتسد كل منصب الى من توافرت
فيه المؤهلات واذا كانت مهدومة اختلفت صفوفها واساءت الاختيار وكانت من

الفوضى بحالة تقتل المواهب وتضيع الاختصاص ، وقد صارت المدينة في عهد ابن مقرن ذروة لكمال النظام العربي وصارت عاصمة منجمة باولئك القادة المحنكين ، تلك العاصمة التي توزع اركانها المعرفة وبعد النظر والاخلاص ، تلامذة منبر محمد (ص) وخريجو مدرسة تلك العاصمة الواعية لكل هجس وهمس في طول البلاد وعرضها ، فما ضاع ابن مقرن ولا ضاعت مواهبه . لقد اختارته العاصمة واحسنت الاختيار فابرزته الى الموقف الذي يحتاج الى مثله وابتلته فأدى الامانة واحسن للبلاد رافعا لوحة الجندي العربي ببسالة وبطولة. لقد كتب النصر وتقدمت الراية العربية فانتصرت اولا في يوم ذي قار وتتابع الانتصارات للبطل العراقي العربي المثني وجاءت نوبة خالد بن الوليد فربح خمس عشرة معركة وأتى بطل القادسية سعد فتقدمت الراية زاحفة في القادسية الى ساباط للمدائن الى جلولاء الى حلوان فالمعركة الحاسمة . واستقر الحكم العربي في العراق ناشرا رايته المظفرة ، وصار العرب المساعير اولى به من الفرس الذين تجمعت فلولهم في نهاوند وعلى رأسهم يزيدجرد . وقد بلغت بهم اللوعة مبلغها على ما فرط منهم من الملك العضوض ويأكل الحقد قلوبهم وألهبتهم العصبية فعقدوا مؤتمرا اجالوا فيه القداح وحمستهم تقاليدهم وانتهى المتآمرون على القيام بمحاولة جبارة تضم العمل السياسي الى العمل الحربي لاسترجاع العراق وقلع المصريين العربيين : البصرة والكوفة من على وجه الارض.

ولما بلغ العاصمة العربية ما صمم عليه الموتورون اهتمت كل الاهتمام واحست بشيء من القلق على غنيمتها الغالية وعلى الشرف العسكري الذي حازته بتلك الفتوحات ،فتشاور القادة وبلغ الاندفاع بالعاصمة ان ترمي باعظم سهم عندها ، الخليفة يعتزم التوجه بنفسه ليقود الجيش ولكن المشورة الحازمة ورجاحة العقل العربي، وحسن اعتماد شيوخ في العاصمة على كفاءة وبسالة القادة هناك وشدة اخلاصهم ، كل ذلك حال دون شخوص القائد وبعد استعراض اسماء اللاتقين لسد الثغرة اسقتر الرأي .

اولا : على ان العرب العراقيين اولى من غيرهم ، ولمع من بين النجوم العراقية النعمان بن مقرن، فجاءت نوبة موهبته، ومظهر نبوغه العسكري فبينما الشيوخ منهمكون في تدقيق القائمة يقول ابن الخطاب :

والله لاولينها رجلا يكون في جيشه أول الاسنة اذا شرعت غدا . وتشرب الاعناق

الى الخليفة ليسمعوا كلمته عن ذلك المختار من المختارين فيقول الخليفة : انه
النعمان بن مقرن المزني . وتجمع المشورة على انتقائه واختياره . وكتب اليه عمر
: اما بعد فانه بلغني ان جموعا كثيرة جمعت لكم بنهاوند فاذا اتاك كتابي هذا سر
بعون الله ونصره ومن معك .

ثانيا : وعلى الفور سار الجيش والراية العربية تخفق فوق رؤوسهم وكانت بطولة
القائد فوق الراية ولما حمست الحرب وازدلف الرجال ادارها ابن مقرن بحزم
ودراية ووثب بعد التعبئة طافا بفرسه في الرعيل الاول يلاعب الاسنة ويصافح
المرهفات كأن نزعة البطولة الكامنة في اعراقه هجمت على دمه دفعة واحدة . وما
زال يعطي البطولة حقها حتى ملك الظفر وكسب الحرب وبينما هو يصول في
قلب الجيش مزهوا بالظفر اذ زلقت به الفرس فرمحته وخر صريعا . ومشى اليه
ابن عمه معقل بن يسار المزني صاحب نهر معقل في البصرة ، وفتح النعمان
عينيه في وجهه قائلا: ما فعل الناس ؟ فاجابه معقل قد فتح الله عليهم . فقال : الحمد
لله اكتبوا بذلك الى الخليفة . وفاضت نفسه .

اللوحة السادسة عشرة

1932

الحرائر العربيات

للعرف اخلاق راسخة في نفوسهم ، راسية في دمائهم ، متغلغلة في مشاعرهم، هي هي ، اساس ما عندهم من تقاليد وعرف وادب ودين . بين العرب اللامعة رملتهم النقية وبساطتهم الطبيعية، لم تجعل حاجزا بين مواهبهم واستجلاء ما في هذا الكون من جلال وجمال، ومن هذا الينبوع الفياض تدفقت اخلاق العرب ورجولتهم وفضيلتهم .

ترى البدوي الأمي وكأنه مسمار من مسامير الارض، آدم نحيف مشتمل بشملة من غزل وبر البعير او صوف شاته ، ولكنه في الغالب رمز من رموز العبقرية ، قد تخرج من مدرسة الالهام تلمح لوحة الاخلاق السامية تلمع على شفثيه ، ويلوح في عينيه بريق الدهاء والفتنة. انظر الى تلامذة مدرسة جزيرة العرب العباقره وما حملوا للعالم من الجمال والحق والنظام، وما خلفوا للتاريخ من نبيل وعظمة، ترى حاصل لا يتناسب مع حاصل المدارس التاريخية من مدرسة اليعاقبة او مدرسة الاسكندرية او جنديسابور او اروقة الفلسفة في اليونان ومهد الحقوق في الرومان وبيوت الحكمة في الهند ، ترى معاجز العرب وآثار نبوغهم ماثورة في بطن الوادي الافيح والى جنب الكثيب وتحت الطنب الفاره او الكوخ المتواضع .

سر عظمة العرب في اخلاقهم ، واخلاقهم مغروسة من التربة الصحيحة التي ينشأون عليها ، فحجور الامهات الحرائر ونواتي الادباء تنشئ العربي لامعا في الرجولة . والى القارئ لوحة الامهات الحرائر ليتبين ما عندهن من مناقب الاخلاق والمزايا .

-1-

أم الخير البارقية
والزرقاء الهمدانية
وعكرشة بنت الاطرش

ثلاث نساء عراقيات يستبسلن في الدفاع عن المبدأ في حومة الميدان في حضرة السلطان الظافر، ولا تقل صلابتهن بعد الاندحار والمغلوبية عن صلابتهن وقت الحماس في ضوء السيوف ولمعان الاسنة. برزت الحرائر يوم صفين فجاءت أم الخير وعليها برد زبيدي وببيدها سوط منتشر الظفر وهي تهدر قائلة «وضح الحق ولاح السبيل ورفع العلم يا نجوم العشيرة، اجمعوا الكلمة والفوا القلوب حتى لا تبطل الحقوق ، اي ابناء ابي ان الاكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوه».

هذه جمراتها وقت اشتداد الحرب، اما وقت السلم وبعد الانكسار يحضرها معاوية الغالب ويقول لها : يا أم الخير والله ما اردت بتحريضك الا قتلي. فتجيبه برباطة جأش : ما حرجت يمينك وما يسؤوني ان يجري ذلك على يدي .

وجاءت الميدان الزرقاء بنت عدي وهي تقول :

«ايها الناس ان المصباح لا يضيء في الشمس والكواكب مع القمر ولا يقطع الحديد الا الحديد . فصبرا على المضض حتى يندمل شعب الشتات».

وبعد الانكسار يقول لها معاوية «لقد شاركت عليا في كل دم سفكه» فتقول مثلك من يبشر بخير فقال : انكري حاجتك قالت آليت على نفسي ان لا أسأل اميرا اعنت عليه.

وجاءت عكرشة ميدان صفين صارخة بالبهايل:

«كونوا مستبصرين مبدأكم مستظهرين على حقكم واياكم التواكل فإن ذلك ينقض العرى ويطفئ النور»

وبعد ان استظهر معاوية وتم له الامر قال ما حملك علي ذلك قالت «لا تسألوا عن اشياء ان تبد لكم تسئكم» فقال معاوية يا أهل العراق : نبهكم علي فلا تطاقوا.

2- ذات النطاقين

جالد عبدالله بن الزبير الذي قيل فيه «ما ولدت النساء أزكى منه» جالد مملمة

الجيش الاموي وقد احاط به وضيق عليه الحصار طيلة سبعة اهله حمراء دموية ، وهو في غير جند ولا حصن سوى عزة النفس وقوة الاخلاق وكفى بهما اعتصاما . لقد سد الهاجمون النواحي واخذوا الابواب وكان ينوشهم بسيفه ويكشفهم من ههنا وههنا مثل اسد الاجمة يعدو في اثر القوم حينما اقدموا فينكصهم حتى وهنت بالعزائم ممن بقي معه واخترمت المنية المساعير من اصحابه وبلغ الوهن من ضعاف القلوب ان يستأمن ابناه: حمزة وحبیب. فأصبح الحديث غثا، والسلاح رثا، وفنى ما عنده من الادخار، ومست الحاجة الى فرسه فذبحه وقسم اللحم، ودخل على امه ذات النطاقين قائلا :

«يا اماه خذلني حتى ولداي ولم يبق معي من ليس عنده اكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني الدنيا وما اريد فما رأيك؟» قالت انت اعلم بنفسك فان كنت على حق واليه تدعو فامض له وقد قتل عليه اصحابك واذا تقول كنت على حق ولما وهن اصحابي ضعفت فهذا ليس من فعل الاحرار، فنهض ابن الزبير وقبل رأس امه وقال هذا رأيي وبه خرجت وانا دائب عليه الى يومي وانما احببت رأيك قال ذلك وخرج مصمما على فعل الاحرار.

3- ام فرع

ما بين بغداد والفلوجة على جانبي الطريق طناب ممدودة وبيوت منتثرة لاهياء قبيلة زوبع ، وزرع فخذ من شمر وشمر من ربيعة سموا باسم الارض الاولى التي يقطنونها وهي شمر قريبا من جبلي أجا وسلمى .

هبطت هذه القبيلة العدنانية من بلاد الجزيرة الى اراضي الرافدين وقطنت في العراق منذ قرنين ، وبيت زعامة هذه القبيلة بيت محمود والنابه فيه بعهدنا هذا : ظاهر آل محمود من اولاده ضاري وفرع . اما ضاري فسوف يخط له تاريخ الثورة العراقية امجد صفحة ، اما فرع فقد كان وحيد امه التي هي من علية قبيلة عنيزة وكانت مخائله وشمائله تدل على ماله من مستقبل مجيد . وفي عام 1308 كان فرع محببا في ندوة أدبية وهو شباب ناضر، وله ملامح تملأ العين اذ هجم عليه نوفل رجل من قبيلة الكروشييين الذين استحكم العداء بينهم وبين زوبع، واعمل سلاحه بفرع فقتله ووثب من ندوة الرجال الى بيت النساء ملتجئا من سلاح العشيرة الموتورة، وكانت ربة البيت ام فرع فاستجار بها واجارته على الفور

ملقية بنفسها على الدخيل تحميه من سلاح اخوة ولدها القتل فقالوا لها : يا حرة
مكني منه فانه قتل وحيدك فرعا وتركه مضرجا بدم الشباب وها هو وجود بنفسه.
فتماسكت العربية التي فاجأها الثكل وأجابت بصوت منكسر وعبرة مسيلة لا والله
لا امكن من يستجير بي تأبى شيم الاعمام وتقاليد العرب، واعلموا اذا مسه مكروه
منكم فاني منذرة لكم باشتباك الاسنة بين قبيلتي وبينكم . فوقفوا ذاهلين امام تلك
القارعة الموجعة وذلك المعجز الاخلاقي ونهضت الحرة وهي تولول على وحيدها
ماسكة بدخيلها حتى اخرجته من زوبع سالما وعادت واقامت المناحة على وحيدها

4- الخنساء

حضرت الخنساء حرب القادسية ومعها بنوها الاربعة، ولما كانت الليلة التي صمم
العرب فيها على الهجوم في صباحها جمعت اولادها وخطبت قائلة والله انكم لابناء
رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة، لاهجن حسبكم ولا تغير نسبكم ، فاذا
اصبحتم غدا والحرب قد شممت عن ساقها واضطرمت لظاها فيمموا وطيسها،
وجالدوا رئيسها واحتدموا خميسها تظفروا بالغنم والكرامة. فبات ابناؤها وكل
واحد منهم قبسا مشبوبا ولما اضاء لهم الصبح بادروا مراكزهم وانشأ اولهم يقول
:

يا اخوتي ان العجوز الناجحه قد نصحتنا اذ دعتنا البارحه

فباكروا الحرب الضروس الكالحه كم مية تورث غنما رابحه

وقاتل حتى قتل. فحمل الثاني وهو يقول :

ان العجوز ذات حزم وجلد والنظر الاوفق والرأي الاسد

قد امرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرا بالولد

وقاتل حتى قتل. فحمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصي العجوز حرفا قد امرتنا حربا وعطفا

نصحا وبرا صادقاً ولطفا فبادروا الحرب الضروس زحفا

وقاتل حتى قتل. فحمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للاحزم ان لم أر في الجيش جيش الاعجم

ماض على هول خضم خضرم اسعى لفوز عاجل ومغرم

وقاتل حتى قتل. فبلغ الخنساء نبأ الثكل بالاربعة فقالت مستبشرة : والله لقد شرفني قتلهم. وبلغ الخليفة عمر بن الخطاب موقف الخنساء وأولادها ومقدار بلائهم يوم القادسية فأكبر ذلك وقدره حق قدره وجعل يعطيها ارزاق اولادها الاربعة لكل واحد منهم مائتا درهم حتى وفاته.

5- خطب

منصور بن عمار حث على الجهاد فطرحت على المجلس صرة لا يعلم ما فيها وعندما فتحت وجدت فيها ظفيران مع رقعة كتبت فيها امرأة: رأيتك يا ابن عمار تحض على الجهاد والاعانة عليه: من جهاز غازيا فقد غزا، وانا والله لا املك لنفسي غير هاتين الظفيرتين وقد جززتهما من رأسي والقيتهما اليك عساك تجعلهما قيد الفرس فاغز ولعل الله يرحمني. وما تليت الكلمة حتى ارتج المجلس بالبكاء والنحيب .

6- ام حكيم

زوجة قطري بن الفجاءة الذي هو من ابطال الخوارج ومن فحول شعرائهم ومن عيون قصائده قوله :

اقول لها وقد طارت شعاعا من الابطال ويحك لا تراعي
ويقول من قصيدة اخرى :

لعمرك اني في الحياة لزاهد وفي العيش ما لم الق ام حكيم
من الخفرات البيض لم ار مثلها شفاء لذي بيت ولا لسقيم

حقا انها من الخفرات البيض .. لقد كانت من اجل وانبل النساء خلقا وخليقة وكانت تشارك زوجها في المواقف الحربية بكل شجاعة وكانت تجاربه بنظم الجيد من الشعر. وبعد وفاته كانت وفيه له، خطب وطلب يدها الكثير من اكابر الخوارج فلم تعطهم يدها وردتهم واحدا بعد واحد وكانت خاتمة امرها الموت وهي تخوض الحرب قائلة :

احمل رأسا قد سأمت حملة

وقد مللت دهنه وغسله

الافتى يحمل عني ثقله .

وعدد الحرائر النابهات في الدين والعلم والادب والفن كثير مثل «البتول - الزهراء -» ، وابنتها زينب وحفيدتها سكينة ومثل عائشة ولبنى الاندلسية وولادة بنت المستكفي وفاطمة الاندلسية وخديجة الاندلسية وحمدة بنت زياد صاحبة الابيات التي مطلعها .

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم

ومثل المريية مريم الاندلسية التي فتحت مدرستها لبنات الاشراف والنبلاء ومثل اختها رضية الملقبة بالنجمة السعيدة، وكان شعار المرأة الفاضلة في الاندلس تعليق قنديل على باب دارها وقد بلغ عدد القناديل ستين الفا ..

ومن الحرائر ام الحسن التي تتلمذ عليها ابن تيمية وكانت وفود العلم والادب تقصدها للاستفادة ومثل هند زوجة ابي سفيان اذ نظر زوجها الى عظم رأس معاوية فقال انه خليق ان يسود قومه فقالت ثكلته قومه ان لم يسد العرب .. ومثل فاطمة بنت السمرقندي التي كان الملك العادل نور الدين يستمد بعلمها ورأيها .. ومثل بنت عبدالرحمن التي اجازها ابن خلكان ومثل زوجة الفرزدق التي كان الناس يحتكمون اليها ومثل رابعة العدوية المتصوفة ومثل جميلة التي علمت معبدا الغناء وكان المغنون يحتكمون اليها ومثل دنائير وولادة وام كلثوم ومثل الطبيبات ام الحسن بنت النجال وزينب بنت ازهر وابنتيها الطبيبتين الخاصتين لنساء المنصور .

هذا بعض ما حضر لي من الحرائر الموهوبات .

اللوحة السابعة عشرة

1933

الرجل الضفدع واخوانه في المزايا

-1-

عيسى العوام

عندما اشتدت الحرب الصليبية وشب اوارها اظهرت المحنة مزايا الرجال وفي مقدمتهم «عيسى العوام». لقد بالغ الصليبيون في حصار عكا وضيقوا الخناق على اهلها ، فانندب عيسى للعمل على كسر الطوق وافراج الضائقة. وبادر على العمل الخطير حيث جمع العوامين من اصحابه وركبوا عمارة بحيرة بعد ان رفعوا عليها اعلاما افرنجية وحلقوا ذقونهم تشبها بالافرنج لابسين البزة الافرنجية فكانت عمارتهم صليبية المظهر ، جاءت وتغللت بين العمارات الافرنجية . وبهذا تمكن عيسى من ايصال الذخائر لاهل عكا . وبعد ذلك انحرفوا بعمارتهم وصبوا النفط على مراكب الافرنج واحرقوها وعادوا ناجحين . وبعد هذا اتخذ عيسى حزاما من جلد لا ينفذ اليه الماء وصار بريدا عسكريا يغوص في الماء بين الاساطيل العائدة للعدو ويوصل الكتب واكياس الدنانير الى العكاويين ، ولبت مدة مثابرا على الخدمة والعكاويين ينتظرون في آخر الاسبوع ظهوره ليزودهم ، واخيرا ترقبوه فلم يظهر في الموعد وحسبوا انه قبض عليه وهو عائم او ادركه الاعداء فقتلوه ومرت الايام واذا بجثته يقذفها الموج وعلى وسطها حزام الرسائل والدنانير .

-2-

فتى دمشق : ما اعظم المواهب التي تجلت في الحرب الصليبية وما اجمل

البطولة التي ابرزها المناضلون من المسلمين . يقبل ملك الالمان متطوعا من بلاده الى بيت المقدس ومعه العدة والعديد والآلات الحربية التي لا عهد للمسلمين بها . دبابات تدك الاسوار والحصون وتسير بالجنود من داخلها وخارجها ولها ابراج مصفحة بالحديد ينصبون عليه المجانيق، وكثير من المعدات الحربية الجديدة .

وقديما اعتاد الانسان على المفاجأة بالجديد من السلاح، أفزعت هذه الآلات الفتاكة الجيوش الاسلامية وراحوا يعملون الفكر في التخلص منها، ويبذل القائد صلاح الدين المكافأة الحسنة من التقدير والمال الخطير لمن يستطيع التغلب عليها فيتقدم فتى من الدمشقيين ومع الاسف ان يضيع اسمه فلا يخلد، يتقدم قائلا : انه الكفوء وانه اكتشف ما يبطل سحر هذه الآلات ويتلفها . ولكن لم يستقبل رأيه استقبالا حسنا ولم يحترم بحجة ان المشاهير لم يستطيعوا عمل اي شيء فكيف الشباب المغمور الذي لم يسبق له سابقة . ولكنه يصبر بعناد قائلا ان المحك والتجربة لا تكلف كثيرا، فيسمح له ويهيئ ما اراد من المواد لاختراعه ويرمي رميته الاولى على برج واذا به ينهار وهو شعلة من نار احقرت البرج. وهكذا يأتي على الابراج جحيما فكانت تلك الابراج عظيمة في الائتلاف كما كانت عظيمة في الانشاء .

-3-

مواقف من الثورة العراقية الكبرى :

وتشرف بنا مواقف الثورة العراقية الكبرى في حزيران عام 1920 على وقائع حمراء وقيادة ماهرة ومزايا لمعت في محن عديدة لاولئك المساعير على الرغم من عدم تكافؤ القوى في العديد والعدة.. فاحرار مساعير ثاروا لعزة وطنهم وكرامتهم القومية، وجيوش امبراطورية ضخمة يسندها سلاح فتاك لم يعهده العراق والعراقيون وطائرات تقذف بالحمم . قطار مدرع في البر ، وطرادات حربية في النهر ورشاشات تصلي برصاصها المنهمر. اما سلاح الثوار فقلوب تدرعت بالشجاعة الفائقة وتدرعت بالارادة الصلبة، ولكنهم لا يملكون الا البنادق القديمة على الاكثر والسلاح الابيض من خنجر وسيف وفالة والا عود صلب فيه ذراع اعتمد بالقار او بصخرة صغيرة يسمى - مكوارا- او - صخرية - مع شحة

في العتاد والمواد الحربية. تراهم يعتزون بالطلقة الواحدة فلا يسرفون بها الا بعد التأكد من اصابة الهدف، ويظهر ذلك جليا مبلغ اعتزازهم بالعتاد الحربي في محاولتهم قبل كل شيء وبكل تضحية في سلب البندقية الجديدة وعتادها وخطفها من الجنود الاحياء او القتلى . تراهم والحومة مشبوبة يهجمون ببسالة واستماتة لكسب تلك الغنيمة ذلك الكسب الحربي المهم عندهم، فقد ربحوا في معركة الرستمية او كما يقولون «بالرارنجية» تلك الاقطاعية الزراعية الواقعة بين مدينة الحلة وقرية الكفل، كثيرا من السلاح الجديد : بنادق ورشاشات ومدفع ضخم، وكانت القوة الانكليزية التي اصطدم الثوار بها مرسله من الحلة الى الكوفة لفك الحصار الذي ضربه الثوار على الحامية الانكليزية في الكوفة تلك الحامية التي تحصنت بالاستحكامات المنيعة في البر وبالطراد المدرع (فاير فلاي) في النهر وبالطائرات في الجو . وكان الثوار قد سلموا قسما من مكاسبهم الحربية الى المجاهدين الذين اقاموا على حصار حامية الكوفة ومن تلك المكاسب المدفع الضخم مع قذائفه عساهم يغرقون بواسطته المدرع (فاير فلاي) ذلك المدرع الذي ازعجهم بقذائفه اشد الازعاج. ولكن ظهر ان المدفع معطل اذ كان ينقصه المغلاق الذي انتزعه الانكليز المنسحبون حتى لا يستفيد به الثوار. وعلى الرغم من ذلك فقد تعهد بعض الثوار البواسل باصلاحه واستعماله وسرعان ما اتصلوا ببعض الجنود الهنود المسلمين الذين كانوا في الجيش الانكليزي ويقوم هؤلاء بسرقة مغلاق من عتاد الجيش الانكليزي ويجيئ به هؤلاء الابطال الى المدفع المعطل ولكنه فت في عزيمتهم اذ ظهر انه لا يوافق ذلك المدفع ولكنهم بكل بسالة تذرعوا بواسطة المهرة الحدادين الوطنيين وتمكنوا من تثبيت المغلاق وقام الرماة بتسديد طلقات المدفع علي الطراد فعطلوه بل حطموه. تنفس الثوار الصعداء بامتلاكهم البنادق الجديدة والرشاشات والمدفع وانهيال - فاير فلاي - ولم يبق ما يزعجهم الا الطائرات التي قابلوها بعزيمة وثبات.

اللوحة الثامنة عشرة

1934

أبو الغمس الخزاعي

في القرن الثاني عشر للهجرة كانت الوجة في العراق البصرة والكوفة وبغداد ووجة اسر وقبائل، البداوة فيها اكثر من النظام الحضري، فكانت المدن الراكبة على ضفاف الرافدين، وفي ضمنها بغداد، اسواقا للريف اكثر من حواضر. انها محلات استهلاك لا محلات انتاج. فالكرخ من بغداد وبتعبير اصح بغياد القديمة كانت اثارا لقرية فيها نظام الاسر اكثر من الحضارة ونظامها، والبصرة كانت اما لكور من القرى، البداوة ظاهرة فيها وطابع المدنية ضعيف والمشخة هي الكل في الكل والحياة بكل مظاهرها تنبسط وتنقبض بحماية المشخة، اما الولة في بغداد والمسلمون في البصرة فمصيرهم معلق بمشيئة الشيوخ ومساندتهم. ان والي بغداد لا ترسخ قدمه وتنفذ كلمته حتى تسانده قبيلة عبيد والعزة وزبيد وربيعة وكثيرا ما كان الزعماء يسبقون «فروقا» في تعيين المتسلمين والولة فالشيوخ يفرضونهم ويأتي التعيين كعملية رسمية، هذا الشيخ ثويني مقدم المنتفق وأميرها يأتي بسليمان بك من الحويزة وينصبه متسلما على البصرة بالرغم من عدم موافقة والي بغداد الذي كان يعود اليه امر البصرة والشيخ حمود بن ثامر السعدون يؤوي سعيد باشا بن سليمان ويجعله على البصرة ويصطدم بوالي بغداد ذلك الاصطدام الخطير، حيث ينفر الوالي عبدالله ومعه قبائل ربيعة وقشعم وينتهي الامر بالخاتمة المريعة التي ذهبت بحياة الامير مشكور امير ربيعة وبعبد الله باشا والي بغداد ووبرغش بن الشيخ حمود وبنجم شقيق الشيخ ثويني كل ذلك لحماية سعيد باشا وتنصيبه وتتنازل «فروق» فتنصبه على البصرة وبغداد وشهرزور. فالعراق في القرن الثاني عشر للهجرة تتوزعه الامارات والمشخات العربية

رببعة ومنازلها من موضع «البرص» وهو تل في ظهر ناصرية المنتفق من جهة الغراف والى موضع شادي وهم اسم اقطاعية في ظهر الكوت ومشخة خزاعة وهي ذات مركزين :الاول الشامة : وموقعها حوالي القضاء الاداري المعروف ب «الشامية» والمركز الثاني «الحسكة» وهو قرية حوالي الديوانية . وللحسكة هذه تاريخ محترم في الريف العراقي واجلال في صدور العراقيين الامر الذي يكشف عن مقام خزاعة في الفرات وللحسكة لغة ممتازة في الريف العراقي، فلغتها هي اللغة الممتازة للريف واسلوبها يقتدى به في الادب الريفي العراقي. وقد تجتمع المشيختان لزعيم واحد، مشخة المنتفق في لواء البصرة ولواء الناصرية وطرف من لواء العمارة وبادية العراق الى العقيق الاعلى ومشخة زبيد بين الحلة وبغداد والنعمانية والموصل وجزيرة ابن عمرو وقبيلة عقيل وهم رهط نجديون ينزلون في ظهر بغداد من جانب الكرخ وعلى الاكثر يكونون في ركاب الحكومة وتابعيتهم العشائرية لآل الشاوي زعماء قبائل العبيد . وعقيل هؤلاء هم غير عقيل النازلين على ضفاف الغراف والذين كانت لهم الامارة في كل الانحاء، وقبيلة طي هم بنو لام ما بين العمارة والقرنة ، وشيوخ الجزائر وهم من بني اسد ومن رببعة . وكم من الواح مجسدة للتاريخ العربي العراقي في عهد تلك المشيخات واليك واحدة منها :

كانت خزاعة في ذلك العهد العميرة المجلية كما عرفت ولا تزال آثار تجليلها في النفوس وكانت النسبة الخزاعية لامعة في روايات النبل والشرف والشجاعة وحتى في الوصف والتشبيب. وفي القرن الثاني عشر تقمص زعامتها ثلاثة اشخاص نابيين : حمد آل حمود علي الصويح وأبو الغمس. ولابي الغمس هذا مواقف شهيرة تشبه الاساطير ففي جمادى الاول 1201 هجرية زحف جيش لهام من بغداد على زعيم خزاعة الشيخ حمد الذي اجتمعت فيه الرياستان في الحسكة والشامية وكانت الحملة قوية فاعتصم الزعيم في جهات الحسكة وهي الجهة المنيعة من ارض خزاعة قريبا من موقع الرميثة هذه الايام تبطح الماء وتسيبه .كانت اشبه باجمة تتجمع فيها الاسود حتى ان اسم الرميثة طبع عند العراقيين ب«الابيض» ذكرى لاسد كان يكثر في جلده الشعر الابيض وكان يربض هناك فاذا كانت الرميثة غاب الاسد فالحسكة في عزتها ومنعتها جبهة الاسد. ويظهر ان تلك البقعة من البقاع العراقية الموقفة كانت دائما مظهرا للشجاعة فهي تارة اجمة

للسباع وتارة عرينا لاسود العراق من خزاة وطورا مطلقا لذلك اليوم الاغر في تاريخ العراق يوم الثورة العراقية فمن الرميثة دوت الطلقة الاولى فكانت اللسان الناري للثوار وكانت العلم الاحمر للاحرار من اقصى العراق الى اقصاه . اجل اعتصم الشيخ بجبهة الاسد ودارت الحرب في ذاك العرين سبعة أهله ختمتها شجاعة أبي الغمس بظفر لامع، وذلك ان خزاة لما تغلبت عليها الحرب واشتدت المحنة ارادوا تحكيم مواقعهم تحكيما منيعا ، وتحفظوا على احيائهم وعائلاتهم من نار الجيش ومن قذائف المدفعية حتى يكون الظهر عامرا والوجه كله للدفاع، فقرر اقامة صد على طول الجبهة حتى تندفن القنابل المقذوفة قبل ان تنتشى في وسط الاحياء والبيوت وتوزعوا العمل على طول الخط الواقع بين النهر المعروف اليوم ب «الهدام» والنهر المعروف ب «شط خنجر» الواقعين في اراضي الرميثة حتى اليوم، وتوجد هناك بقايا لذلك الصد ماثلة رمزا تاريخيا لذلك اليوم. وقام كل زعيم بحصنه من ذلك الصد الا ابو الغمس بقيت حصته ثلثة في ذلك الصد . ولما طولب ان يسد الفراغ قال انه سيسده بسيفه وان الغمس اذا تحدث بالسيف صدق. ولما اشتد الهول كانت بعض القذائف تنفذ من تلك الثغرة فطولب ابو الغمس بتعهده وسرعان ما شد على جواده وبالغ في ضبط الاحزمة فتشهد الحصان والعراقيون يقولون «زمر» فأنشأ ابو الغمس رباعيته الشهيرة في الادب الشعبي على الطريقة المعروفة ب (الميمر) ولا تزال المحافل تردها

تزحر يمن ريتك هرش ما تدره

والمادرى بالعاقبة ما يدره

العز بالتهيات يلما تدره

والذل تتلاه الندامة واكثر

واعتلى الجواد فجاء يعدو حتى وقف في تلك الثغرة ورأى من اين تصوب المدافع فانقض على المدفعية واسكتها بعد ان اكثر في رجالها القتلى والجرحى وتلاحقت به فرسان خزاة فكانت الفاصلة وذلك في محرم سنة 1202 هجرية .

اللوحة التاسعة عشرة

1934

القضاء عند العرب

بالغ العرب في جاهليتهم بهيبة القضاء والاعتناء كل الاعتناء بالمحكم فجعلوا له فصل الخطاب. وجاء الاسلام فزاد في الاحترام وضاعف في هيبة مقام الحق والعدل. وقد اختلف مصدر الثقة والاحترام، ففي الجاهلية كان المصدر الاخلاق والتقاليد ، لقد كان شيخ الندوة بعد استماع الكلمات وتقصي نواحي المحاكمة يستعرض المثل الاخلاقية وظواهر السير الحميدة فيستل وينتزع الحكم . وكان عراف العرب يستوحدون الحكم من الاعراف ، ومن ذلك الافق يجيئ الحكم فاصلا حاسما ويقابل بتقبل واحترام، وهذا المصدر الذي تخشع له نفوسهم هو القوة الاجرائية والنفاذ للحكم على المحكوم.

وفي العهد الاسلامي كان المصدر ازكى وأنبل لان كلمة القاضي كلمة الله وكفى بذلك هيبة وسلطانا. لقد عرف المسلمون ان القضاء منصب سماوي ، وكم من وقائع لامعة في التاريخ الاسلامي تنوه عن جلال تلك الساحة وعظمة ذلك المجلس . كان النبي (ص) وتابعوه والوزراء والملوك يتساوون مع الخصم في مجلس القضاء ويجري عليهم الحكم كما يجري على غيرهم من سائر الناس ، وفي حادثة درع النبي المثل الاعلى في احترام القضاء وذوبان كل اعتبار .. يقول احد اصحاب النبي :

نصدقك على اخبار السماء ولا نصدقك في درع. فيرد عليه النبي (ص) انما اقضي بينكم بالبينات والايمان ، ويترافع علي مع ذمي امام عمر بن الخطاب ولما قال عمر ما عندك يا ابا الحسن من حجة؟ امتعض علي قائلا كنييتي فاضعفت خصمي . ولهشام الاموي وعمر بن عبدالعزيز والمأمون وابراهيم بن المهدي والوزراء والقادة والامراء وقايح شهيرة تشيد بمجلس القضاء وتشيد برفعة شأنه

وما فيه من مساواة ونكران الذات والاستقلال. بواروع الوقايح ما جرى في القاهرة ايام الايوبيين بين يدي القاضي بن عبدالسلام ففي ذلك الحدث التاريخي تسطع صرامة القضاء . كان ابن عبدالسلام صعب العود يتشدد حتى على السلطان عند ظهور اقل بادرة مخالفة للتقاليد الاسلامية . وكم تطف به سلطان دمشق الصالح اسماعيل ولكنه انكر عليه صده عند الافرنج وطأطأته لهم ، فهجر دمشق الى مصر فاستقبله السلطان الصالح نجم الدين ، واکرم مثواه وولاه قضاء مصر فتصدى لبيع الامراء لانه لم يثبت عنده انهم احرار. فقد كانوا من المغول ومن جملتهم نائب السلطنة. فاستشاط وبقيّة الامراء وارسل الى ابن عبدالسلام وحضر عندهم ولكنه لم يأبه بما لديه من حول وقوة بل قال لا بد وان اعقد مجلسا وانادي عليكم ببيت المال، فرفع الامراء شكواهم الى السلطان الذي بعث على ابن عبدالسلام وحاول ان يلويه عن وجهة نظره ولاطفه فلم ينجح الاقناع. وينزعج نائب السلطان فقال ابن عبدالسلام : غضب الخيل على حمم الحج . وتشكى النائب قائلا : اينادي علينا هذا الشيخ ونحن ملوك الارض، كل ذلك لاننا لسنا من عرقه وليس لنا سمرة لونه فلا بد لنا من ان نستشير سيوفنا فيما يراد فينا . وتظاهر بقوته وركب بجماعته الى بيت ابن عبد السلام الذي لم يكثرث بابتهم واستقبلهم على الباب وليس معه من السلاح اية قوة الا نفسه وايمانه .

خرج لهم بهيبة العقيدة ووقاره المهيب ولما وقع بصر نائب السلطنة على ذلك الشيخ المهيب شاهد منه رمز الحق ومثال الامانة وقسطاط العدل فخار وانهار واجهش باكيا وهو يقول :

سيدي ماذا تريد ان تعمل بنا ونحن قلاع ثغوركم ، قال:
انادي عليكم ، وقال :وفيما تصرف اثماننا . قال: في مصالح الامة. وقال ومن يدفع الثمن قال: خزائن اموالكم . فقال له: ومن يقبض ذلك ؟ قال انا. ولا خير في حكم لا نفاذ فيه ، ولم يجد النائب تجاه هذا المتصلب المهيب الا التسليم وتم ما اراده ابن عبدالسلام.

2-

واغرب ما عرفته من التلاعب في القضاء كنت في مجلس التمييز فاطلعت على سوء تصرف لاحد قضاة بغداد بصورة غريبة ومدهشة خلاصتها ان بعض المبعدين في آخر ايام العثمانيين ببغداد قد توفي ونعي الى اهله فاعتدت زوجته .

وبعد ذلك تزوجت بغيره وقد عز الزواج ذلك على ذويه فارادوا ابطاله مدعين ان ابنهم حي لم يموت . وتثبت الزوجة وفاته بشاهدين مقبولين كانا معه في المنفى وقد حضرا دفنه فقال احدهما دفناه خارج المدينة وقال الاخر دفناه بصف البلدة ولكن القاضي تلاعب في الضبط فوضع نقطة مركزة صغيرة على كلمة صف بخط يده فصارت بنصف البلد وعليه حكم برد البينة لاختلافهما، ذاك يقول خارج البلد وهذا يقول بنصف البلد.

ولدى التدقيق عرفت ان تلك النقطة وحبرها ليستا من خط الضبط ولا من حبره فنقص الحكم وقد كان لي شرف ذلك التشخيص.

اللوحة العشرون

1935

السفارة العربية

القادسية مدينة عراقية ذات جانبيين يشقهما فرع من الفرات يسمى نهر القادسية ويربط الجانبين جسر وقعت عليه المعركة الاولى بين العرب والفرس «وقعة الجسر». والقادسية على الحدود الشرقية للعراق مما يلي البادية وموقعها اليوم بين «الرحبة» و «كربلاء» وكانت قد بقيت الى القرن الثامن للهجرة حين ذكرها ومر بها ابن بطوطة.

وليوم القادسية غرر وحجول. ومن غرره اللامعة «لوحة السفارة العربية». لقد كان يوم القادسية يوما عظيما في التاريخ العربي ، اذكى النفوس ونبه ما فيها من المزايا والمواهب . وقد تعاونت فيه الهمم والشيم والشجاعة الادبية والمادية وتراكضت فيه النخوة ، وصلابة النفس ، والحكم والبلاغة وكرم المحتد واصالة الرأي ، كل هذه المزايا تسابقت يوم القادسية.

لقد تكشفت العروبة عن لمعاتها من جواهر الاخلاق وفصوص الفضيلة واليك التفصيل: بعد الجفل من نكسة موقعة الجسر صممت العاصمة العربية ، المدينة المنورة، على معاودة الحرب واكدت على نفسها ان يبرز العرب كلهم لفتح العراق عنوة والاقتصاص ليوم الجسر فعقدت الراية للقائد سعد ومشى بها هابطا الى العراق عن طريق «شراف» و «عين السيد» وبلغ النبا المدائن عاصمة الفرس فعقدت الراية للقائد رستم على جيش لهام، توجه الى القادسية عن طريق «ساباط المدائن» ومن الريف الى لسان الرمل اليابس ما بين الحيرة والنجف مارا بالخورنق وميزان اباد فالصنين فالرهيمة . وبعد ان تكامل الجيشان قدم سعد سفراءه الخمسة الى عظيم الفرس رستم، فجاء خمسة من مساعير الجزيرة ، سمر

نحاف ، يابسو الجنبيين، ملثمون بعذابات عمائمهم، مشمرون ثيابهم، يطؤون الارض بهوادة واتزان وقد علق كل واحد منهم على عاتقه حمائل سيف بالي القراب، فشقوا صفوف ذلك المعسكر الرهيب الذي تعلوه الفخخة والفخامة وعظمة المظهر وتطيش برجاله احلام من الخيلاء. اما اولئك الرسل الخمسة فقد كانت تعلوهم الغبرة من عجاج الخيل وتلوح وجوههم حرارة الشمس وكانوا في بساطة المظهر ، عاطلين من كل لمعان الا لمعة الرجولة ونور العقيدة وضوء الاخلاق. اندفعوا بحزم وثبات الى الامام غير مكترئين بما حولهم ومشوا يسحقون السجاد الايراني النفيس باقدامهم المفطرة التي تنتعل مرة وتحتفي اخرى لانهم لا يدرون متى تكون الجفلة. مشوا حتى دنوا من سرير عظيم الفرس رستم فزالوه بعد ان بدأوا بالتحية العربية الحلوة واكبرت عنجهية الفرس ما شاهدوا مدهوشين من هذا الاقدام وهذه الجراءة. أهولاء السمر النحاف يزاحمون عظيم الفرس على سريره بدون وقوف ولا طأطأة رأس ولا تكفير بدين؟ انه حدث خبير هجم على دمهم وضيق على صدورهم فيجتمع الغضب المكظوم ويتحول الى صرخة في وجه السفراء. ما هذا مجلسكم؟؟ انه عظيم الفرس وبرفق وتؤدهة تتحرك شفنا السفير العربي الوقور وتشافهم بالمثل الاعلى للاخلاق قائلة : نحن من قوم أمرهم دينهم بالمساواة والوحدة شعارهم . وسرعان ما تنفذ هذه الكلمة الطيبة الى تلك القلوب المحتاجة لهذا المثل فتهدم ما ران عليهما من باطل العظمة . لقد كان عظيما وقع كلمة السفير على القوم الذين صبت نفوسهم الى ذلك الدين المهذب للاخلاق والمظهر للانسانية والمحفز على الشجاعة الادبية والثقة بالنفس . بتيناك الكلمتين تمت هزيمة القلوب ولذعت النفوس الملتاعة بقبس من نار الحق. وتلفت عظيم الفرس الى الوفد قائلا :

- ماذا تريدون بنا وماذا تريدون من بلادنا؟
- انا وعدنا بوعد جننا لانجازه والعراق هو ارض ميعادنا .
- اي شيء وعدتم به ومن الذي وعدكم ؟
- وعدنا بالتغلب على أرضكم ووعدنا بذلك صادق أمين فلا بد من تحقيق كلمته الغالية.
- فقدم عظيم الفرس بسخرية وتهكم زنبيللا من تراب ارض العراق وقال هذا لكم من ارضنا : انه كل نصيبكم من مملكة فارس .

وسرعان ما يهب كبير السفراء بكل لباقة ولياقة باسطا رداءه مستقبلا ذلك التراب باحتفاء واهتمام حارصا على جمعه حتى الذرة قائلا : بهذه الحفنة تفاعلت ان ارضكم تصير لنا ، وقريبا نتغلب عليها .. ان هذا اول التغلب.

ويعود السفراء الى قومهم مستنفرين فتجول الخيول العربية حتى تبلغ بالقوم ضفاف دجلة وفراضها واخيرا الى صخرات نهاوند .

ومثل هذه السفارة العربية السفارة النجدية التي كانت في مطلع القرن الثالث عشر للهجرة بين الدرعية في نجد والسراي في بغداد .

لقد وجه والي بغداد سليمان الكبير الجيوش النظامية والمتطوعة من القبائل العراقية بقيادة علي باشا لمحاربة الوهابيين الذين اشتد ضغطهم على بلاد الطفوف من العراق، وكثرت غاراتهم على الرعاة العراقيين بقيادة عبدالعزيز الاول وابنه سعود الاول . وكان قد تصدى للوهابيين مقدم بني المنتفق الشيخ ثويني على رأس لملة من عشائر المنتفق وآل ضفير في موقع «الشبيك» من نجد. ولكن اغتيل ثويني وتفرق جمعه لان الجيوش العشائرية لا نظام لها بغير الشيخ . والشيخ هو النظام كله، فاذا ذهب تفرقت وذهبت بذهابه.

ورمت انوف النجديين لهذا النصر الرخيص، ولكن انقاذا لتفاهم خطرهم على العراق وبالاصح على الخلافة العثمانية في العراق وجه الوزير سليمان باشا بايعاز من العاصمة «فروق» القائد علي باشا ، على رأس حملة كبرى وعندما وصل الاحساء وطرق بابها تبادل المدينة مع الوهابيين ، اخذها منهم واخذوها منه. واخيرا شعر علي باشا بصعوبة الظفر العسكري فحاول نشدان الظفر السياسي . وكان سعود بن عبدالعزيز الاول دبلوماسي البادية والسياسي المحنك بين النجديين . وفي الموقع المسمى (بيج) من نجد جرت المفاوضة السلمية واتفق الطرفان على شروط الصلح وتراجعت الحملة الى بغداد، وفي بغداد اقيمت المراسيم لتصديق شروط الصلح فزين لها سراي بغداد وزخرفت جدرانها . ولأجل التأثير على السفير الوهابي الذي قدم بغداد للتوقيع بذلت جهود كثيرة من فخامة المظهر وفخفته . ووقف الحرس الخاص والجنود بحلهم المزركشة واوسمتهم اللماعة المصففة على صدورهم بكل هيبة ووقار ولكن السفير البدوي ظهر بكل ببساطة في الزي وعظمة الرجولة مشى بكل رزانة ورباطة جأش متخطيا صفوف الباشوات الذين حضروا للاحتفاء والاحتفال ، تخطاهم الى حيث يجلس الباشا

الكبير فجاى ولس القرفصاء امامه ونشر ورقة صغيرة مشتملة على شروط
الصلح وذلك بعد ان مهد لها بخطبة وجيزة قلت ودلت افرغها بلهجة بدوية نجدية
مركزة.

اللوحة الحادية والعشرون

1935

النهضة

ثمانية قرون سود أنتت على الامة العربية وهي منكسة الراية مغلوبة مغلولة واستميج القارئ عفوا لاني لا اريد ان ألمسه موضع الألم، انما انا باحث عن موضع الألم، أحب أن انعش العاطفة ولا أكبتها وان ارمم عزة النفس المهذومة لتسترجع ذلك الطموح الجبار. اريد ان انفض الرماد عن الجمرة وانفخ من تلك الروح التي ألفت من نهضتنا الأولى حملة كثر في سلاحها جريد النخل. فان العزم اذا كان من حديد كتبت له الغلبة ولو كان السلاح من جريد.

حرام على حملة الاقلام ان يكسروا عزة الامة التي تريد ان نهب ونبعثها. لا تنتشروا الدفتر الاسود وتاريخ المحنة حتى لا تتركوا المغلوبة في النفوس ويتمكن الضعف من الهمم. انها جناية على نفسية الامة لها اثرها البالغ، وسموم تزيد على سموم الاستعمار، لان الاستعمار مادي يفتك في ماديات الامة، اما اسلوب الكتاب الذين يغمسون اقلامهم في الدموع وينشرون صفحات البلوى والاحن والانخزال والتفكك والضعف والانهيال فاسلوب فاتك في روحية البلاد يبيلد العاطفة ويهدم القلوب العامرة، ويترك في القلوب جروحا نغارة.

في الحجاز، وبارك الله الحجاز، بلاد العرب المقدسة ومقام كعبتهم ارتفعت راية النهضة الاولى ومن ذلك الافق بزغ فجر العرب وارتفع ضحاها فاضاء يومهم في التاريخ حتى أتى إذا ما حل الغروب واحلوك الليل، بزغ الفجر مرة ثانية من ذلك الافق وارتفعت راية النهضة الثانية التي نريد ان نكتب لوحتها. ارتفعت راية النهضة الاولى في وسط شعب لم تسلم له الا اخلاقه وقوميته تتنازع حيرة في الايمان، تلك الحيرة المظلمة التي جعلته يتذبذب بين الوثنية الفاسدة والتوحيد

بالفطرة ، وخيبة في النفوس، وجهل في المدارس، وشتات في الشمل ، وفقر في الصناعة، وقناعة بخشونة العيش، وخضوع لسلطان الاجنبي. ارتفعت راية النهضة في وسط ذلك الشعب فانتصرت ونبت ذلك التاريخ الوضاء. وارتفعت راية النهضة الثانية في وسط الشعب الذي لم تقض الحوادث على كل مزاياه ومواهبه وان كان مفكك العرى مبتول الحبال في عزلة عن العالم فقير في الماديات اعزل في السلاح ولكنه متماسك ومحافظ على اهم نقاط كيانه : الفضيلة والرجولة والقومية. مهما نالت يد الحدثان من الامة العربية فانها تقاصرت ولم تستطع ان تعبت بفضيلة العرب ورجولتهم وقوميتهم بل بقي الكيان العربي الاخلاقي والادبي راسخا شامخا. لغتهم حية بأدابها الخصبة تراحم اللغات وتحتل مراكزها المهمة . فينا ترى السلطان الأدبي للغتهم على اللغة التركية والفارسية، تجد أن الجهة المهذومة من العرب هي السلطان السياسي او الوحدة العربية، اذ جل ما فقده في القرون السود هو الوحدة السياسية ليس الا. اقول الوحدة فقط لان العناصر المهاجمة للعرب لم تتغلب علي الإمارات العربية في زمن المحنة وانما تغلبت على الرمز الجامع لتلك الامارات. فالاتراك لم يقربوا جزيرة العرب مدة حكمهم ولم يتسلطوا على اليمن بلاد العروبة الاولى وجاملوا الحجاز مجاملة كثيرا ما ضعفتها السيوف العربية وطردتها من البلاد، ولم يضبطوا العراق العربي في وقت من الاوقات وانما كانت لهم قدم واقفة علي اطراف الاصابع في شمال العراق ، اما الجنوب والوسط فقد كانا في عافية من السلطة التركية والامر فيهما للزعامة او الامارة او المشيخة العربية التي كانت راسخة هناك في بيوتات خزاعة وزبيد وربيعة والمنتفك وطي. وكثيرا ما استند الحاكم في بغداد على قوى هذه الامارات التي تقرر مصير ذلك الغريب وتحكم على موافقه. كل مصيبة العرب، كانت الوحدة السياسية والرمز الجامعة لذلك الجيش المغلول على رغم القوى المتوفرة فيه، هذه هي اللؤلؤة التي كان المجد العربي يغوص عليها طيلة ثمانية قرون. هذه هي الشمس التي حجبها الغيوم عن الافق العربي، هذه الضائعة العزيزة وجدها بطل العرب الخالد الملك حسين الذي خلق لها وكانت مخايله وشمائله تدل بوضوح - من يومه الاول- انه بطل القضية. فكم توسم عراف الاتراك ودهاتهم انه رسول القومية العربية ، كم تصريح مهم لسااستهم في ذلك آخرها تصريح سجين سلانيك عبدالحميد المخلوع الذي كان عاقدا عشر انامله

على حجز الملك حسين في الاستانة «فروق» ، تلك الاستانة التي اصبحت بيئة ثانية للاشراف ورجالات المحجوزين هناك، فان عبدالحميد لما بلغه ان الاتحاديين خلعوا امارة الحجاز على الحسين بن علي قال : لقد ذهب الحجاز من ايدي الاتراك.ولكن كانت نبوءة ذلك السياسي ناقصة فان الحسين لم تكن احلامه مقصورة على الحجاز وانما كانت جوانحه تحمل البغية الكبرى وهي الوحدة السياسية العربية ولم يكن هم الحجاز عنده باكبر من هم العراق وسوريا والجزيرة. ووضح شاهد على ذلك التصريح الخطير الذي سمعته من فم الصادق يوم حضرت القصر العالي بمكة في زمرة المحتفلين بنتويج الملك فيصل على العراق حيث خطب الملك حسين والتفت الى صفنا العراقي فقال بصراحة حارة ويمين غموس : اني بهيج بهذا اليوم لا بالتاج على رأس ولدي فيصل وانما بهجتي بتحقيق جزء من الوحدة العربية التي آليت ان اعيش لها واموت في سبيلها ، قسما برب هذه البيئية «ملوحا الى الكعبة» لو دعاني الشعب العراقي لان احرس قرية من ريف العراق في سبيل تحقيق الوحدة العربية لطرحت التاج والصولجان في التلبية لحراسة القرية .

اجل لم يكن الحجاز الهم الوحيد للملك حسين كما برهن على ذلك في الخاتمة الشريفة .ان سلسلة بني نمي كثر فيهم الناهضون الذين استرجعوا الامر في الحجاز بل منذ تسعة قرون وبنو الحسن يتولون سدانة الكعبة وامارة الحجاز فلم يكن الملك حسين فذا في ذلك وانما معجزته هي في النهضة لاسترجاع الوحدة العربية السياسية ، تلك النهضة المباركة التي لمعت فيها ثلاثة مواقف كبرى لم يقفها غير الملك حسين من جمرات العرب:

- 1- الثورة العربية باسم البلاد العربية جمعاء
- 2- نشر الدعوة العربية في اوربا
- 3- الثبات المدهش والتصلب الجبار

ثلاث معاجز اختصت بالملك حسين دون غيره ممن تطوع للقضية العربية، وكانت ثورته على الاتراك في سبيل سائر البلاد العربية. وما أشد مكافحته عن الشبر من تلك المملكة الموحدة كما يطفح بذلك تاريخ النهضة الرسمي فليضم سوريا، ينهض ويضم فلسطين، وقد رقد رقدته الابدية في سبيل تلك المملكة الموحدة .

أجبت حياة الملك حسين احتجاجا صاخبا من مكة الى فلسطين الى قبرص الى بيت المقدس وهو بيته الاخير .وقد نشر الدعوة العربية في اوربا التي لم تكن تعرف شيئا عن فضيلة العرب ورجولتهم وشعورهم القومي، ولكن عقال بني نمي على رأس الامير فيصل بن الحسين عرف الاوروبيين بذلك جيدا فقد طوف اوربا موفدا من قبل ابيه يحمل تلك الالواح السامية وسوف يبقى احتجاج الملك حسين الذي وجهه الى الشعب البريطاني او صرخته الكبرى منقوشا على قلب كل عبري ونصب عين كل بريطاني الى ان تدنو الساعة التي لا بد من دنوها صيحة في واد ان ذهبت اليوم فسوف تذهب غدا بالاوتاد .

ثبات الملك حسين وتصلبه :

اما ثباته فينبئك عنه فجر التاسع من شعبان سنة 1334 هجرية. ففي الساعة التاسعة والدقيقة الثانية عشرة غروبية خرجت الرصاصة الاولى من قصر الامارة مقذوفة من بندقية الشريف حسين وازيزها مهلهل بالبعث العربي على اسم الله والحق .ولم يبرز فجر ذلك اليوم الرهيب الا وجنود الاتراك ومدفيعيتهم المنصوبة في قلعة جياذ المشرفة على احياء مكة تواصل قذائفها على كل مكان تظن فيه قوة العرب وخصت بالعناية دار الامارة فاستهدفتها والملك حسين رابض في القصر لا يبالي بما كان وما يكون لان الجهاد في سبيل القضية العربية واجب. ودامت أفواه المدافع تصب على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوما وقد ولجت احدى القنابل غرفته وهو جالس منهمك في التدبير للثورة وقد ارتجت لها الغرفة وماد البيت، عندئذ نطق الحسين بأية الثبات قائلا : « قر يا بيت انها ميدي وما هي ميديك» . هذه الكلمة ذات الحادث المعروف عند قبائل العرب قالها بطل عربي أحاط به اعداؤه وهو تحت الرصاص . قال قر يا بيت انها ميدي وما هي ميديك. اي اسكن ايها البيت فان ما تميد به لم يكن القصد منه الا لاصبر انا واضرب لا لتميد انت وتضطرب . وحسبك من تلطفه موقفه الاخير من جدة والعقبة وقبرص وآخر نفس مبارك وهو الذي لفظه في فلسطين.

اللوحة الثانية والعشرون

1936

يوم زلافة

تملكني الروعة عندما استعرض تاريخ العز في الاندلس وتاريخ الذل وما تم لنا وعلينا في تلك الجنة، اين المفوه الموهوب واليراع البليغ والريشة الفنانة لتصور ما كان لنا هناك من ابتسامة ودمعة رهيب ذلك التاريخ، فما اروع تلك الحياة وما افجع الميته اللتين هزتا الشرق والغرب . ان دخولنا تلك الجزيرة الخضراء عرس وخروجنا ماتم. وفي هذا وذاك لمعت نجوم وتأقت مناقب. صفحات ممجدة للعباقرة من العرب ومناير ترشد السالكين الى مواطن الشرف من تاريخنا واذا كانت المحن اصدق في اظهار مواهب الرجال وفي الساعة السوداء تتولد أضواء الحفيظة وتتجلى كوامن الاخلاق والمواهب ، اذا كان اشتداد الخطب اكبر محك لصفات الدم الجاري في العروق فتعال نطلع على المشهد في يوم زلافة .

اجتاحت العاصفة جند العرب في الاندلس فكان التقويض ينقض الارض من اطرافها وتناوحت معاول الهدم على تلك الايدي ، فعراك ملوك الطوائف وانقسامها من جهة وزحف الافرنج وانصباب سيل من الجبال الى السهول من جهة. وكانت آنذاك الشخصية اللامعة للمعتمد بن عباد عظيم الاندلس، ويقابله ملك الافرنج «الفونس» الذي اشتدت اللوعة بين جوانحه على استرجاع الاندلس وانتزاعها من العرب . وما زال بما اعطي من حول وقوة يهاجم الفلول من ملوك الطوائف حتى جاءت نوبته مع ابن عباد وهناك انتطح الكيش بصخرة صماء. اجل لقد بلغ به الغرور ان يطلب من ابن عباد تسليم الحصون المنيعة وابقاء العرب في السهل المكشوف وفي منطقة جلاء ، ويطلب ان يمكن امرأته لتضع حملها في

جامع قرطبة، ذلك الجامع الاعظم والمعجزة الفنية لان الاساقفة اشاروا بذلك تبركا
بمكان كنيسة كانت هناك وطمست آثارها. وكان السفير في هذا البلاغ وزير الملك
فثارت حفيظة ابن عباد وتناول محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس السفير .
ويبلغ ذلك ملك الافرنج وفورا انزعج وهاجم بجنوده البلاد من جهتين في جيش
بقيادته وجيش بقيادة احد المساعير من الافرنج. والتقى الجيشان في اشبيلية على
ضفة النهر الاعظم قبالة قصر ابن عباد وكتب الى ابن عباد ساخرا : لقد كثر في
مجلسي الذباب واشتد علي الحر فاتحني من قصرك بمروحة اروح بها عن نفسي
واطرد بها الذباب . ووقع له ابن عباد على ظهر الرقعة : فهمت خيلاءك وسوف
انظر في مراوح تريح منك لا تروح عليك . وفشا في الاندلس توقيع ابن عباد وما
فيه من صرامة وعزيمة، ورغب ابن عباد في استنجد يوسف بن تاشفين
والاستظهار به على الباغي فحذره بعض مستشاريه من عاقبة هذا الاستنجد
وقالوا له : السيفان لا يجتمعان في غمد واحد. فقال لهم : لان اكون اسيرا لآخي
يوسف ارى الجمال في الصحراء خير لي من أن أكون أسيرا لملك الافرنج ارعى
خنازيره . وجرت الرسائل والمرامضات بين ابن عباد ويوسف الذي هب لنجدة
ابن عباد ونهد بجيش جرار واستقبله ابن عباد وكان الموعد اشبيلية فتواردت
الجيوش، ولما تلاوح الجيشان ركض ابن عباد نحو الامير يوسف فتعانقا وتواصيا
بالصبر والجلد وبلغ ملك الافرنج نهوض يوسف للنجدة فتخوف من المغبة وكتب
الى الامير يوسف بقلم بعض هواة الادب مغلظا بالوعيد. وعندما بلغ الكتاب
يوسف قال هذا كتاب طويل وتناول الكتاب وظهره: بان الذي يكون ستراه.

ولما قرأه الملك ارتاع وخار عزمه عالما بانه ابتلى برجل لا يطاق فاستنفر اهل
بلادهم وما يليها ورفع القسس والرهبان صلبانهم ونشروا اناجيلهم وقد اجتمع لديه
ما لا يحصى عدة، وكتب الى ابن عباد متحديا بالامير يوسف ان صاحبكم قد تعنى
في طريقه من بلادهم وانا احب ان اكفيه العناء فيما بقي واني زاحف اليكم للرفق
بكم. ولما ازدلف العسكران أذكى المعتمد عيونه في محلات جيوش الامير يوسف
خوفا عليهم من مكائد الافرنج لانهم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وقد تولى ذلك
بنفسه حتى قيل ان الرجل لا يخرج على طرف الا ويجد ابن عباد مطوفا. ولما
حل يوم الكريهة رسم ابن عباد الخطة مع الامير يوسف على ان يقف ابن عباد في
وجه العدو ويضرب الامير في اقفيتهم. وزحف جنود الطاغية وصدمت ابن عباد

صدمة تزعزع لها جيشه وصد ابن عباد في صفوف من رجاله وقد عضته
الحرب باضراسها حتى اثنى بالجراح وعقرت تحته ثلاثة افراس ، وهو مع ذلك
يسعر الحرب وتذكر في تلك الحال طفلا صغيرا له عزيزا عليه فانشد :

ابا هاشم هشمتمتي السيوف فله صبري لذاك الاوار

تذكرت شخصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

وهنا تواصلت النجدة من قوات الامير وزلزلت الارض واستمرت المناجزة
وتجاوبت الجبال بزعقات الابطال ، فرفرف النصر متوجا على الراية العربية،
وتراجع الافرنج وصد مهم الكمين، وهكذا توالى الكرات حتى ترجل اربعة آلاف
من فرسان العرب وطعنوا خيل الافرنج بفرسانها ولصق رجل بملك الافرنج
وانتضى خنجرا كان متمنطقا به فطعنه طعنة هتكت حلق درعه ونفذت الى فخذ
وكانت الفاصلة، فانكشف الافرنج خاسرين المعركة وجمعت رؤوس القتلى من
الافرنج وكونت تلا عظيما. وان محل المعركة عل اتساعه لم يكن فيه موضع قدم
الا على ميت او دم جريح. واقامت الجيوش اربعة ايام حتى جمعت الغنائم وقدمها
الاندلسيون الى الامير يوسف فآثر بها جيوش الاندلس واقام المنجد ثلاثة ايام وعاد
راجعا فشيعة ابن عباد يوما وليلة وعزم عليه الامير بالرجوع لان جراحاته قد
تورمت فسير مع الامير ولده عبدالله حتى بلغ البحر عابرا الى المغرب وقد زال
عن بصره كل ما في الاندلس من جنان ومتع ولطف وزهو راجعا الى ارباذ
الصحراء لا يحمل غير زاد النخوة ولا مالا الا من قنا وسيوف .

اللوحة الثالثة والعشرون

1938

اليرموك والشنفة نهران شهدا موقفين تاريخيين للعرب في ماضيهم وحاضرهم .

-1-

مل المسلمون مطاولة الروم في وادي اليرموك فاستتجدوا عاصمتهم ويكتب ابو بكر الى خالد وهو على الجيش في العراق يحثه على المسير الى الشام، سار خالد وتنكب سلاحه محاولا ان يثب من ضاحية العراق الى مشارف الشام شدة واحدة حتى يسند المسلمين هناك . وكان الماء وحده هو الشبح الذي يصدم عزم خالد ويخيفه عن المجازفة ومغبة الاسراع، لان الراكب المخف يخاف على نفسه العطش في ذلك الدو الذي ليس في الا لعاب الشمس ولمعان الآل، فكيف بالخييل الراكضة والابل المثقلة، ولكن ما كان لذلك ان يعطل خالدا من الالهابة ويحبسه عن اغائة اخوانه فاعتزم وصمم على الاحتفاظ بالخييل وتضحية الابل وما كان الا ان اصدر امره الي صاحب كل جماعة ان يعطشوا الابل ثم يسقوها علا بعد نهل ويصروا آذانها ويشدوا مناخرها ، فسار وبعد يوم وليلة شق بطون بعض الابل وسقى الخيل مما في البطون من الماء، فعل ذلك عدة ايام حتى بلغ مشارف الشام، وخرج من وراء جموع الروم فناوشهم وطوى ما في طريقه من المدن والعقبات حتى أتى حوران وتدمر ثم طلع على ثنية ناشرا رايته «العقاب» فسميت تلك الثنية بتلك الراية «ثنية العقاب» .

وفي يوم الواقعة الفاصلة بالغ في اتقان القيادة وتعبية الجيش اذ احدث طريقة الكراديس . وكان عدد الجيش يناهز الاربعين الفا من البطل العرب وجمراتهم منضوين تحت الراية التي يشترون لها النصر بغالي الارواح وصفوفهم منجمة بألف صحابي تجلهم هيبة القائد العام الذي الهب الحماس بخطبة استهلها بقوله :

هذا يوم له ما بعده فلا ينبغي التظاهر والتفاخر ولا تقاتلوا قوما لهم نظام وتعبية وانتم كل امرى متساند الى اصحابه، انا لا يضعفنا ابدأ تأمير نظام وتعبية على الجميع ، هلموا فان العدو قد تهيأ ولتتناوب القيادة العامة اليوم لي وغدا لآخي . وزحف خالد في تعبئة لم يعبئها العرب من قبل . ستة وثلاثون كردوسا وعلى كل كردوس قائده الشجاع. اما تصميم الروم فقد كان عظيما رهيبا كان الغيغار واشراف الروم تجلهم برانسهم متزملين على نهر اليرموك في تلك الساعة العصبية وعشرات الالوف من صناديد الروم وهم مقيدون بالسلاسل ومربوطون بالعمائم لذلك اليوم المشبوب وقد تلاقت السيوف وتلمضت الرماح ومالت الفرسان على الفرسان واستحكمت المحنة وصدق البلاء، وفاحت رائحة البطولة ، وبينما كان خالد غاظا بين خيل الروم ورجلهم ينش ذبابهم بسيفه اذ يبلغه صوت رجل يقول : ما اكثر الروم واقل العرب . فصاح خالد بل ما اقل الروم واكثر العرب انما تكثر الجنود بالايمان وتقل بضعف العقيدة ، وما انتهى تصميم خالد حتى كسب المعركة .

-2-

يرموك المنتفق

في عام 1913 ملت حكومة العراق العثمانية صيال عشائر المنتفق الثائرة . ويصمم والي بغداد وقائد الجيش جاويد بشا على منازل عشائر المنتفق ، مبتدئا بالعشائر المحيطة بالشرطة. وجه اربعة عشر طابورا ، من الجيش النظامي واستنفر كافة عشائر الغراف من مدينة الحي الى مدينة الشرطة فكانت الملحمة تبلغ الاربعين الفا حتى ان بعض الافخاذ تخاذل من عشيرته وانضم الى جند الحكومة. ولم يصمد للمحنة الا مئات وكان الدنيا قد تجمعت عليهم . ولكنهم بعد ان ثبتوا للصدمة الاولى تضععوا وانكشفوا قليلا الى ما وراءهم من ضفة «الشنفة» «يرموك المنتفق» والتجأ زعيم العبودة الى زعيم خفاجة ذلك البطل الشهم علي بن فضل فهب للذب والحماية ونفرت خفاجة لنصرة اللاجئ الذي تخلف عنه قومه الا القليل ، ويخطب الزعيم في ذلك القليل قائلا غدا تكون الجولة فلا بد وان نكون في الطليعة وخفاجة سند لنا، لا نتركهم يتقدموننا لان الطلب على رقابنا لا رقابهم.

فهزت القوم النخوة وهب الشمم بروائح الطيبة وقالوا نحن لها دون سوانا
وسرعان ما نصبوا بيت الحرب «كناغ» وهو بيت تنقل اليه الجرحى والقتلى
واحتفروا فيه حوضا كبيرا حملت النساء اليه الماء من النهر وهن يزغردن الهابا
لحمية الرجال، ووقف زعيم القوم يثير العزم والنخوة بزجله الحماسي مخاطبا
زوجته «شيدي واذبلج بيه باشا» أي ارفعي البيت وسأذبح لك به باشا قربانا،
وفي الاصيل زحفت تلك الملممة على اولئك المصاليات الذين تفاءلوا خيرا لانهم
يعتقدون بان الزحف في وقت الاصيل لا يربح المعركة .واستقبلهم المناضلون وقد
اوصى الزعيم النسوة بالتقاط الجرحى والقتلى لان الرجال في الحومة. وغص
الفرسان في تلك الموجة العارمة التي غمرت المشاة من المدافعين وامتد النزاع
ونطفت العروق شارقة بالدم وورمت الانوف بالحمية . الشعار يخفق والنعار
يدوي والشباب يتهافتون مهفهفا. وما مالت شمس ذلك اليوم الا وفصد العرق
ونزت الرابطة القومية فمالت العشائر ميلا واحدة على الجيش وهم يزجلون «يا
بن العم حنت عوجانا» أي اوحشت اضلاعنا. وضربوا في اقفية الجيش فاختل
نظامه وارتبكت صفوفه وانسحب متسترا بجدران الشطرة ، والرجال تتعقبه ولم
تكن تلك الغلبة لعشائر انشطرة والغراف بل لكل عشائر المنتفق ، وكما كانت
معركة اليرموك الفاصلة كانت معركة «الشنفة» الفاصلة ولم يبق للاتراك نفوذ او
سلطان.

اللوحة الرابعة والعشرون

1938

محسن السعدون

المنتفق قبائل مبنوثة في جنوب العراق وباديته، لم تكن في البدء من القبائل النهرية وكانوا حوالي البحرين، بعد التاريخ الهجري بما يقارب القرنين. هبطوا البادية العراقية مما يلي ظهر البصرة كما نوه كتاب العبر الجزء الثاني صفحة 202 . ان بني عجل بن لجيم الذين هزموا الفرس يوم ذي قار كانت منازلهم من اليمامة الى البصرة وقد دثروا وخلفهم في تلك البلاد بنو المنتفق ومكثوا في بادية البصرة.

وفي غضون القرن السادس للهجرة تحولوا من البادية الى الريف مما بين واسط والبصرة ، وذلك لما استقدم المستنجد العباسي مقدم بني المنتفق بن معروف في اخريات ايام السلاجقة 554 للهجرة وكان المتولي على البصرة «ابن معروف» زعيم من ربيعة يتقدم بني المنتفق ويقال له مقدم المنتفق . المستنجد العباسي استقدم ابن معروف هذا فنزلت قبائل المنتفق الريف بعد جلاء بني أسد من هناك . وبقيت قبائل كثيرة من المنتفق الى اليوم في البادية العراقية وكانت زعامة المنتفق في ربيعة متنقلة من بني معروف الى حكام البصرة المعروفين ب «الطوال» آل راشد وهم ربيعة ايضا. ومنهم انتقلت الى آل شبيب اجداد آل سعدون ومن آل شبيب انتقلت الى آل سعدون . في اواخر القرن الثاني عشر للهجرة تهدمت امارات ومشيخات عراقية في الجنوب وفي الوسط وتحضر العراق بحكم الافندية والبيكات والبشوات واستبدال العرف والتقاليد بالقانون والنظام .

الوضع في العراق :

كان الوضع في جنوب العراق ووسطه من بعد العهد العباسي حتى القرن الثاني عشر للهجرة على الاكثر وضعا قريبا تحكمه الامارات والمشيوخات. وكانت مشيخة آل السعدون ارحب وارهب من غيرها وسعت كل عراق البصرة متجاوزة الى حدود السماوة من الفرات ، وقريبا من كوت الامارة على دجلة ، وكل بادية العراق وبلاد البطايح والاهوار . وقد نقل آل سعدون مواد البناء لامارتهم من آل راشد من الصفويين ومن امراء فارس والاحواز ومن العثمانيين وبعد ان تم هذا البناء اخذت تتمايل امارتهم الى الانهدام وكانت معاول الهدم ثلاثة :

اولا : توسع النفوذ العثماني في العراق.

ثانيا: تمسك آل سعدون ببداوتهم وهم في بلاد حضرية .

ثالثا : انقسام آل سعدون على أنفسهم.

محسن السعدون ومواقفه :

كانت مشيخة آل سعدون نسيلة أو فرعا من مشيخة آل شبيب، وتنتقلت امارة آل شبيب في ستة مشايخ، وتنتقلت امارة آل سعدون البدوية في ستة عشر شيخا . ومن الغريب انها ابتدئت بسعدون وانتهت بسعدون ابتدئت بسعدون آل محمد وانتهت بسعدون آل منصور . فما اجل ميراث محسن، اربعة وعشرون زعيما انتقلت تركتهم من المزايا والمواهب الى محسن، وقد أحسن الخاتمة فتوج مآثرهم بخدمة العراق في اروع موقف خالد. كانت الحكومة العثمانية من اشد الاعداء للبيوت النابهة من العرب ولجل الاحتراز من تلك البيوت كانت تأخذ من ابنائها رهائن ولكن بتغطية وتمويه، حيث اوجدت في الاستانة مدرسة لابناء الزعماء مدعية انها تريد تثقيفهم ولكنها تريد ابقاءهم تحت رصد «المابين».

وكانت زعامة آل سعدون آنذاك الى فهد باشا والد محسن فيرغب اليه السلطان عبدالحميد ان يرسل من يختار من اولاده الى مدرسة ابناء الزعماء والاشراف ويختار الشيخ فهد ولده عبدالمحسن وكان له من العمر 12 عاما. ولما تخرج من المدرسة دخل المدرسة الحربية العالية ولما تخرج فيها اختاره عبدالحميد مرافقا عسكريا .وبعد سقوط عبدالحميد انتخب نائبا عن لواء المنتفك في البرلمان التركي، وبقي محافظا على تلك النيابة في الدورات الانتخابية الى الحرب العامة

الاولى ، وبعد الهدنة عاد الى العراق ثم رجع الى الاستانة لتسوية شؤونه لانه عزم على المكث في بلاده التي عاد اليها عام 1922 .

ويحاول الانكليز الاستفادة من مكانته الاجتماعية ومن اخلاقه العربية وموارثه الادبية ، ويخيل لي ان الانكليز على عاداتهم في المستعمرات من الاستفادة بالعنعات والبيوتات الارستقراطية اختاروا من شريف مكة المكرمة ملكا على العراق ونقيب بغداد رئيس حكومة وزعيم آل سعدون وزيرا ثم رئيسا للوزراء او لمجلس النواب . وفي رياسة وزارته الرابعة اخذ يعد لما يريد ان ينهض به من المطالبة بحقوق البلاد . ولما استيأس رفس الكرسي واستقال احتجاجا على التصلب الذي كان يلاقيه من القريب والبعيد . والحقيقة ان فيصلا وحاشيته كانوا يرون في محسن ومكانة محسن واخلاق محسن اكبر مزاحم لمركزهم فكانوا من جهة يتظاهرون باسناده فيما يريد في الخدمة للبلاد ومن جهة خفية تضرب معاولهم على هدمه عند الشعب، وعند الانكليز فيقولون للانكليز انه عراقي اكثر من اللازم . ويقولون للشعب انه اشد انكليزية من الانكليز . ومحسن يسمع ولا يأبه بهذا ولا بذاك وكل ما عنده التمسك باهدافه .

ومن هنا بدأت ظواهر التأثير والقنوط تبدو عليه ، وتخلص وتنفس من بعض همومه ناجيا بنفسه من التقلبات السياسية ، ما ظهر منها وما بطن، الى لبنان . ولكن البلد محتاج اليه والثقة تحوم حوله وهو تحت شجرات الارز منعما بنسمات لبنان، ولم تكن تلك القمم من الجبل الاشم ترد الابصار الشاخصة اليه خصوصا وقد تفتحت بعض الشقوق في السياسة الانكليزية بتولي وزارة العمال الحكم في بريطانيا فاجتذب من لبنان اجتذابا وشكل وزارته الرابعة وجاء حفلة الاستيزار ويده تكاد تكون مملوءة بالربح السياسي .

لقد كانت العروبة الحقة تبدو على عبد المحسن ، كان فيه مضاء بدون جفاء، وهو عادل بدون تراخ، يمشي بكل توازن في تعاريج السسياسة والتواءاتها برغم المعاكسات والمداورات . كان يرى في تربة العراق بذورا صالحة ويعتقد ان في الدم العراقي رواسب وبقايا من مجد حفظتها الوراثة . دخلت عليه ديوان الرئاسة اثناء تصلبيه على مطالب البلاد التي قدمها للانكليز بحرص وتكتم فقلت : اختلف الناس على بابك فيما تريد ان تعمل . فافاض علي بحديث وطني وبرغمي ان لا اجد الآن الوثائق التي تبرهن على نصح . ولكنه لا زال مطبوعا على لوح القلب

واني اختزل منه قوله : اني بلغت ما بلغ امرؤ بجاهه ومنصبه وبلغة عيشه، ولم يبق الا ان اسعى للتاريخ وقد ركبت الطريق. فاما الوصول الى الغاية واما الوقوف الابدي لهذا النبض. ان الدم الذي يجري في عروق محسن يتدفق بتاريخ الشرف والنبل والوطنية وكان المصدر لعزة نفسه القوية بالايمان القومي والاخلاص الوطني هو ما تسرب اليها من مخلفات الاجداد طموح واباء وخشونة وجلد ولكن الظروف القاسية التي مرت على العراق وأمرضت الشعب بهذا الضعف الاجتماعي اضطرت محسنا على المرونة والملاينة ، الا ان عينيه شاخصتان الى الهدف الاسمى يعلوهما فتور الحنكة. مشى بين الموج والعاصفة خشية زينة يقف مرة ويمشي تارة ويثب اخرى والبلاد كالبحر الهائج والسفينة تحت زوابع مقلعة تنذر بالخطر واران المحنة :

1- شتات في رأي الامة.

2- تبليل فيمجلس الامة ناشئ عن حزبية مضطربة واكثرية محلولة.

3- والادهى التواءات وعقد ومفاجآت في البلاد ودار الاعتماد ودس يغطيه الدهاء بغموض .

مرت المعاهدة العراقية باعوامها الاربعة وحان الوقت لاعادة النظر والدخول في مفاوضات جديدة فشبك محسن انامله العشرة على اهداف البلاد بعد ان عرف آمال الامة وآلامها. وطرق الباب طالبا ارخاء الكتاب. ولما استيأس من المساعي الوديعة ثارت نفسه و تغيط ذلك البحر واشد ما يهيجه ضعف التربية السياسية في العراق وفقد العون وتلك المعارضة الخفية التي كانت كالنار تحت الرماد وهي سعي فيصل للخلاص من محسن واخلاء الجو لحاشيته ، حتى يصبح الكل في الكل ، ملكا ورئيسا للوزراء والنواب وللعاين .

لقد عزم محسن على التضحية ، لا يستريح من الاتعاب ولكن عقيدة منه انه سوف ينفع القضية العراقية بهذه المينة اكثر من نفعه لها بهذه الحياة . وفي مساء يوم الاربعاء 12 تشرين الثاني لسنة 1929 من النادي العراقي الى قصره ليلا وتناول القلم كاتباً كتابه التاريخي وهو رابط الجأش متوازن القوى وبعد ذلك دوى ذلك العيار لناري الذي ردد صدها العراق بل العالم العربي .

وسيردد التاريخ الخالد مشهدا مهولا مريعا بما فيه من جلال وشرف و ارادة سمية وتضحية اصبحت الامة يوم الخميس بذهول اوقف نبض كل قلب .

فكأن تلك الطلقة خالطت دم كل سامع واودعت في كل نفس دوي ذلك المسدس
الرهييب وانتفضت الامة من سماع فقرات الوصية ولكن لغة ذلك الدم النبيل كانت
امضى واوجع واكتضت الجماهير منتفضة الى دار الفقيد الغالي فكان المشهد :
نصفان بغداد فنصف محشر ساحاته اكتضت ونصف بلقع

اللوحة الخامسة والعشرون

1938

المثنى بن حارثة

اذا كتب تاريخ العراق السياسي كان الفرات من اكبر مصادره، فان ركود الموجة في ذلك الوادي وصعودها كان يطور العراق منذ الاحقاب البعيدة، وان الركائز الثلاث «مملكة زباء» و «بلاد النعمان» و «احياء ذي قار» هي التي اسست العراق العربي . ومن جانب الفرات الايمن كان عبور العروبة الى العراق . واذ كانت النهضة في الحجاز وموجة الجزيرة هي الكل في الفتوح الاسلامية فذلك في غير العراق الذي كان لابنائنا الضاريين في الجانب الايمن للفرات السبب الاول والاخير للفتح العربي. والحجاز كان المركز فقط، اما الجولة في العراق فكانت للعراقيين . لقد حلمت ذي قار وشاركتها في الاحلام البادية العراقية حيث كان فيها من النصارى وهم قبائل تغلب. واستمرت المناجزة وجاء دور المثنى بن حارثة واجتمعت حوله المتطوعة مدفوعة بالعننات القومية الامر الذي كشفه نصارى الحيرة عندما استقر الفتح في العراق واراد المركز في الحجاز وضع الجزيرة على تغلب وهم سكان بلاد الضاحية للحيرة ، رجعت تغلب الى عنناتها وقالت : انا عرب وقد ساهمنا واشتركنا مع ابناء عرقنا في الفتح، وهذا الوسم لا يليق مع الاخوان للاخوان. فقدر دفاعهم ورفعت عنهم الجزيرة وهي الضريبة على الكتابيين تقابلها الزكاة على المسلمين.

ولما وقف ابن حارثة وقاته التاريخية كان مطمئن العقيدة واثقا من الحصول على الهدف، ولكنه لم يرتح الى الاقليمية بل رعى الى الهدف الاسمى ، الى الوحدة

العربية . فشخص بنفسه الى الحجاز وكان رسول القومية الاول واجتمع هناك بالمراجع العليا وبسط خطته واستجلى احلامه فرحبت المدينة بخطته وكان الايمان العربي مشتركا بين القادة والزعماء هنا وهناك، فكأن المنهج كان مخطوطا عند الجميع وكأن الامر كان مبيتا عند القريب والبعيد . بعد ان أحكم المثني شد الرابطة واوصل حلق السلسلة عاد الى العراق ليقود الحركة الوطنية والقومية . ومن طبيبات التاريخ ان يتكرر هذا العمل الوطني القومي مع الحجاز في فترات عديدة . لم يرغب العراقيون بالاقليمية ووجهوا بريدهم ورسولهم الى المركز يخطبون الوحدة وجمع الصفوف وقد تعاون على ذلك النجف والفرات الاوسط وفرات الناصرية والشطرة وغراف الشطرة وشارك فيه زعيم آل صغير بن سويد الذي رافق الرسول العراقي الى ام القرى . لقد زحف العربي العراقي من يومه الاول وسار من ذي قار الى نهاوند بقائد عربي عراقي وهو المثني بن حارثة الى قائد عراقي وهو النعمان بن مقرن . ان المتأمل في تاريخ البلاد العربية اوائل نهضتها يجد موجة البعث موزعة بين الحجاز وطفوف العراق ، فهناك وهنا كانت مبادئ محض واوليات صراع، وكان افكار واعتبار ونزوع في النفوس ورغبة في القلوب وتعرف للاتجاه العديد وكان الصهر يحمي السبيكة ، وتبارك الحجاز بظهور المعجز ولكن الغبش كان يلوح على كل الافق العربي . ان النهضة العربية لم تشذ عن غيرها من النهضات القومية في المقدمات . لقد كان يوم ذي قار اول يوم امالت فيه السيوف العربية رقاب الاكاسرة ، فكان اعظم ايامنا روعة اذ نهد ابريز غازيا بني شيبان لانهم حسب تقاليدهم الغالية حموا من يريد التنكيل بهم ، فرجع بنو شيبان الى احسابهم ونبضت عروقهم بدم القومية الجبارة ، وسمت نفوسهم محلقة عن خطة الخسف ووهدة الضيم ، وطالبتهم عنعناتهم بالاستبسال ، فنفرت تلك الفئة القليلة في العدد والكثيرة بالشمم والشرف ، ولامست سيوفهم جيوش الامبراطورية العظمى وما فيها من جد وجدة وقوة وجبروت ، واذا هي فلول وهزيمة وكان السنان العربي ادمى الى ذلك الصرح ان يهوي فانهار بين يدي شباب بني شيبان ، واطرد النصر للعرب من ذلك اليوم التاريخي . على غرار هذا اليوم المبارك انطبعت نفس المثني بن حارثة حتى صار بمفرده لوحة من اللوحات التاريخية . ان هذا الشيباني العراقي سيف من سيوف ذي قار وهو اول زعيم عراقي ناهض عظمة الفرس في طفوف العراق وضايقهم على مدن السواد

مثل وركاء، سورى ، الصراه، وكسكر وما بين الفلوجتين وكوتي والانبار والحيرة .وهو بطل يوم الجسر الاول .قائد عربي دخل بغداد قبل الزحف الاسلامي وقبل يوم القادسية فقد نفذ اليها من الفرات حيث كبس الانبار وحاميتها واقام الحرس على اهلها كيلا ينفذ منهم احد فينث النبأ ويفشي الخبر، واتجه الى سوق بغداد الذي كان يقام ليوم واحد في الاسبوع وهو يوم الثلاثاء حيث تباع فيه بضاعة المدائن من صياغة الذهب والفضة .وبغداد يومذاك قرية من قرى المدائن. لقد اصبح القوم في عقر دارهم وهم مستندون الى عاصمتهم فوضع فيهم السيف ، وفي ذلك اليوم يقول الراجز :

وآل منا الفارسي الحذره حين لقيناه دوين المنظره

يريد بالمنظرة «تل عقرقوف» كما ذكر البلاذري وفي هذا تأييد لمن قال ان عقرقوف كان مرقبا بين حكومتي بابل ونيوى في وقت من الاوقات حيث يعبر عن الراجز «بالمنظرة».

وكانت خاتمة هذا البطل العراقي في تلك البيئة الحمراء يوم الجسر عندما اصيب القائد ابو عبيدة فلازم المثنى ساقه الجيش حتى اوصله الى مأمنه وخر شهيدا تاركا الواحا تاريخية على جسر القادسية وعلى بغداد وعلى الخريبة او البصرة وعلى كسكر وكوتي والصراة وما بين الفلوجتين .

اللوحة السادسة والعشرون

1939

حنظلة الأسدي

انه يوم حنظلة الاسدي في القادسية، وكم ليوم القادسية من لمع. ذلك اليوم الذي تكشف عن وحدة المزايا في الدم العربي، ففي حرب القادسية يؤسر حنظلة وولده الحارث تأسرهما ربايا الفرس ويريد القائد الفارسي استدراج الاسير الكبير ليعترف على الجيش العربي وموقع الضعف فيه - ان كان بالجيش العربي موقع ضعف - فيسأل الاسير عن سر تقدم العرب الى هذه البلاد وغيرها ويجيب بطلاقة لسان وعذوبة اسلوب « السر في اخلاق العرب وعقيدتهم». وسأله عن العدة والعدد فيجيبه هذا ما اخشى ان ابوح به كيلا يسمع ولدي هذا فينث النبأ منه الى العرب واصبح عندهم من سقط المتاع فاذهب للنار وللعار لان الاخلاق العربية لا تغفو عن الخائن لبلاده وقومه.

- نغري ولدك بالمال.

- ان ذلك لا يطمئن لان عمر الاغراء قصير ولا تلبث السجية العربية ان تعاون الولد الذي تغريه اليوم ولكن غدا يؤدي واجبه الاخلاقي ويدل على الخيانة ولو كانت من ابيه فيذهب مالك خسارة وأذهب أنا.

ويقول القائد : اعرف ان للعرب حسا وذوقا وان يتأثر للجمال والجمال الفارسي يغري ...

- ان جمال الاخلاق أغلى من كل جمال، ان رسالة العربي الارشاد العام - وتهذيب الانسانية لترسيخ النظام العام . ان البشرية في ظلمة قاتمة ونريد ان نريها النور .

ويحاول القائد ان يستر فشله امام ذلك الحكيم فيصيح

-ان اسمالك بالية وسوف نبدلها بيزة فاخرة.

- ان الرجال بافعالها لا باسمالها وليست ثيابي تكلمك بل اننا قوم لا نتزين بالحلي بل «زينة الرجال البطولة».

- اذا كان المال والجمال لا يقربان ولدك فما العمل ؟

- ان تقتله فيخلو لي الجو واستطيع البوح .

وامر القائد بقتل الحارث فيسحب وهو يستنجد بابيه فيقول الوالد الحنون : صبرا بني واحتسب نفسك لنصرة قومك، واني لاحق بك الساعة. واقتطع رأس الحارث فيهمس الشيخ همسة صحبتها نياط قلبه قائلا :

- لقد مات فلذة كبدي ومن قبل قدمت اخويه ضحية في سبيل قومي ولا خير في العيش بعدهم. وحالا انبسط وجهه وسر القائد منظره فقال وهو يتموج سرورا :

- ايها الشيخ نفذنا ما أمرت به فخرنا . وتنتبه العظمة القومية في دم حنظلة واستشعر ذلك الموتور بحرارة الثكل .

- وأي خبر تريد ايها العليج؟ ثكلتك الثواكل تريد ان اكون جاسوسا على أهلي وما استطعت وانت القائد المحنك ان تفهم بان لا صحة لما ابديته لك. اني خشيت ان تغري الصغير وتغويه فيبوح لك ببعض السر ، اما وقد قتل فليس هناك ما اخشاه على قومي .. هاك حنظلة ضحية للواجب واني انما قدمت ولدي مبالغة لكتم السر لا مقدمة للبوح به . فانت انت المغرور واعلم بان وراء حنظلة جيشا كله «حنظلة بن مرة».

ويهم القائد بقتل حنظلة ولكن لاحت طلائع الجيش العربي ففرع القائد واركان جيشه وانهزمت معنويتهم من حنظلة ومن قوم حنظله ويفر الفرس ويعيش حنظلة

اللوحة السابعة والعشرون

1940

الايثار عند العرب

1

ما اروع يوم اليرموك ... وما اروع لوحة الايثار فيه، ان ذلك اليوم كله لمع وروايع. قال ابو جهم العدوي : انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لي اصيب في المعركة فذهبت ومعى شنة من ماء وقلت ان كان به رمق سقيته ومسحت بالماء وجهه فأتيته بين الجرحى واذا به ينشغ فقلت اسقيك؟ فأشار نعم. واذا برجل جريح يقول آه. فامتنع ابن عمي ان يشرب قبله وأشار لي ان انطلق اليه بسرعة واسقيه، فأتيت الرجل واذا هو هشام بن العاصم، فقلت أسقيك؟ فأشر لي بحاجته الى الماء، وسمع جريحا آخر يقول آه . فتلهف وأشار لي ان انطلق اليه أولاً، فجئته واذا هو قد مات. ورجعت الى هشام واذا هو قد مات واتيت الى ابن عمي فاذا هو قد مات .

2

في حي فقير من أنحاء الكوفة - كوفة اليوم- بات رجل من الفقراء وباتت له ليلة هي ليلة ذي العائد الارمد . وقد كان يعج ويصيح من ألم الرمد حتى رق له جيرانه الذين أبعد عنهم أنينه النوم. وعند الصباح هداً قليلاً ولكن سرعان ما ايقظه ثغاء طفل لقوم فقراء نزلوا في داره وسأل عن بكاء الطفل فقيل له انه جائع وليس عند أهله ما يسد رمقه. سمع ذلك بمضض ومرارة. وتدخل عليه عجوز من ذوي قريباه فيشكو اليها الرمد الذي يوشك ان يذهب ببصره، فقالت له : عندي وصفة ربما

خفت المك. انها مح بيضة على قطعة شاش تعصبها على عينك. فقال أنى لي
بالبيضة ومح البيضة. فذهبت العجوز وجاءت بالبيضة وكان الرجل معصوب
العين ، وعندما بشر بحصول البيضة تذكر الطفل فقال والألم يعصر قلبه : اذهبوا
بالبيضة واطعموا بها الطفل، ان هذا الصغير اولى من عيني .فقالوا له ان هذا
الرمد يذهب ببصرك فقال : اطعموا الطفل ولتذهب عيناى.

اللوحة الثامنة والعشرون

1941

الغرور القومي

في كل فترة من السنين تسمو نفسية أمة من الامم بما يتوافر لديها من غلبة او مجد او ثقافة، فترفع راسها عاليا وتعتقد ان الدم الذي يجري في عروقها دم ممتاز وانها بنت السماء او ظل الله على الارض. وتتنظر الى غيرها من الامم نظرة السيد للمسود . على مثل هذا أتى حين من الدهر وأبناء فارس يعتقدون لانفسهم هذه العظمة وهذا الامتياز، ومن قبلهم كان الاسرائيليون يعتقدون انهم شعب الله المختار ، وفي يومنا هذا يرفع البريطانيون لشعبهم هذه اللوحة. وكان العرب قد ساهموا في هذا الغرور القومي فلما جاءت نوبتهم ودقت ساعة مجدهم رأوا انهم حملة المشعل والناس من حولهم في حندس، وانهم قدموا للعالم رسالة مكارم الاخلاق فهم الحملة وهم الحماة وان لشعبهم دعوة مباركة للناس يدعوهم للحق والكمال والخير فشجعهم ذلك الاعتقاد حتى ظفروا بتيجان الفرس وعروش الروم، تينك الامتين العظيمتين اللتين كانتا مطمح انظار العرب. واشتدت العصبية العربية وعظم الغرور القومي خصوصا عند ولاية بني امية وفي خطتهم السياسية.

انظر محاوره المختار بن ابي عبيدة، مع ابراهيم بن مالك الاشتهر يوم خازر اذ قال له : ان عامة جنك هؤلاء من الحمر يريد بهم الموالي ، وان الحرب اذا فرستهم هربوا فاحمل العرب على ظهور الخيل وأرجل الحمر.

وذهب اعرابي الى سوار القاضي فقال : ان ابي قد مات وقد تركني واخي وأخا هجينا لنا، فكيف يقسم المال؟ فقال سوار: المال بينكم سواء. فقال الاعرابي لا

احسبك فهمت ما اقول .انه تركني واخي وهجينا لنا فكيف يقسم المال : قال سوار
ثلاثا .فقال الاعرابي :اياخذ الهجين كما آخذ انا وكما يأخذ اخي؟ فقال : اجل ،
فغضب الرجل وقال للقاضي : تعلم وتعلم والله انك لقليل العمات والخالات في
الدهناء .

ولما نزل الحجاج واسط نفى النبط وكتب الى عامله في البصرة وهو الحكم بن
أيوب : اذا اتاك كتابي هذا فانف من قبلك من النبط انهم مفسدة . فرد عليه ابن
ايوب قد نفيت النبط الا من قرأ القرآن وتفقه في الدين . فكتب اليه الحجاج : اذا
قرأت كتابي هذا فادع من حولك من الاطباء ونم بين ايديهم ليفحصوا عروقك واذا
وجدوا عرقا نبطيا فاقطعه والسلام .

وجاء صالح بن عبدالرحمن كاتب الحجاج ونظر الى ديوان الدولة وجريدة مالها
فيجد الديوان والجريدة مرسومة بالفارسية. وتأبى له قوميته الرضوخ الى ذلك
والصبر عليه بما يحز ضميره . وكان شخصا منحوتا من العزة القومية لم
يصبر على بقاء الدولة العربية بدون ديوان عربي، فيهم ويعزم بتصميم على تنظيم
الدولة العربية . ويشق ذلك على الفرس وادباءهم فيتوسلون بتحويل عزمه . وكيف
يتحول صالح والقومية الفخورة ملء عروقه . ويمتتع عليهم ويلحون عليه من باب
آخر وهو باب الاغراء بالمال لانهم يعلمون ان صالحا في خصاصة مدقعة . ويتقدم
زدفروخ الفارسي فيرضخ له رخصة من النقود بازاء انصرافه عن نقل الديوان
فلم يؤثر ذلك على صالح ولم يتسلط عليه الاغراء والغنى برغم فقره . ولما استيأس
الذين يهمهم الامر من ادباء الفرس قالوا له قطع الله رحمك من الارض كما
قطعت اصل الفارسية عن الديوان .ومضى صالح الى تصميمه وقلب الديوان
الامر الذي اكبره ادباء العربية فقالوا ما أكبر منته على الادب واعظم يده .

اللوحة التاسعة والعشرون

1948

الحركة الفكرية وأسواق الأدب عند العرب

كانت للعرب أسواق وتجمعات في تلك الاسواق الخاصة وهي سوق عدن وسوق حضرموت وسوق صحار وسوق حباشة وسوق هجر وكثير غيرها، ومنها العامة وهي سوق عكاظ ومجنة وذات المجاز والمربد. ولم تكن تلك الاسواق وبالاخص العامة للبيع والشراء فقط ، ولكنها للاهم من ذلك. انك اذا نظرت الى الاسواق العربية وما تتحف به تلك الاسواق من انواع الفضيلة والعلم والادب والحكم الرائعة تعرف أن العرب كانوا على مبلغ كبير وحصيلة مهمة من المعرفة وفلسفة الحياة.

وأهم تلك الاسواق اثنتان : سوق عكاظ وسوق المربد . لقد كانت عكاظ «او هايد بارك العرب» قرية زاهية بمائها وشجرها الوارف وخضرتها المحببة فاختر العرب هذه القرية الجميلة الوارفة الظلال منبرا عاما للشعر والادب وسوقا لتجارة العقول والاذواق وكان ذلك دليلا على ما عندهم من رقة الشعور وحسن الاختيار. ففي كل موسم يحج الى عكاظ عشرات الالوف من محبي الادب وعشاق الفضيلة ، يتحملون المشقة والعناء لاجل ان يسمعوا ما في عكاظ في العراق وفي سورية واليمن واطراف الحجاز ونجد. تسيل الاطراف باعناق المطي حاملة وفود الادباء والشعراء ورسل الثقافة وممثلي الملوك وحملة النفائس الادبية . وفي هذا الدليل الواضح على اهتمام العرب ورغبتهم في الاستفادة والمتعة بالادب والمعرفة . ان ذلك المنبر العالي وذلك الحفل في عكاظ لا يقلان شأنًا في تلك الازمنة على المؤتمرات العلمية والادبية التي تنعقد اليوم في العواصم وامهات المدن الثقافية.

لقد كانت عكاظ اول الامر سوقا ثم اشتهرت وتوسعت فصارت معرضا عاما لمنتوج العرب الادبي، وان نزع العرب من سلاحهم في موسم عكاظ وترك الابطال سيوفهم ودروعهم في البيوت والمضارب وحضورهم عكاظا تاركين كل غل وضربهم قبة الشاعر لمن يفوز بجائزة الموسم ، واختيارهم ان يكون القائمون بضرب تلك القبة من قريش لانهم سادات العرب، اما حرس الشرف لتلك القبة فمن القبائل المعظمة في البلاد العربية من قريش مكة وغسان سورية ولخم العراق ومناذرتة. كل هذه الامتيازات دليل على ما عند العرب من الادب والمعرفة . يا للمنظر الرائع قبة خضراء عالية كتب على جوانبها اسماء الشعراء الذين يلقون قصائدهم في ذلك الاحتفال وقد كتبت اسمائهم بحروف من الذهب وحول القبة الشباب المتورعون والكهول الخاشعون لجلال الموسم ، وتحت تلك القبة شيوخ الادب يستعرضون سبائك الادب كما يستعرض الصاغة سبائك الذهب ، ويقلبون تلك النصوص والفصوص كما يقلب الخبراء عقود الجواهر، وبعد ذلك يحكمون للمجود. ومن اهمية عكاظ ان يشرفه محمد (ص) في موسم من مواسمه الاخيرة. وكان في اختيار الزمن لانعقاد مجمع عكاظ أهمية كبرى انه ينعقد في اخريات شهر ذي القعدة حتى يقصده كل من يقصد مكة المكرمة للحج. ومن الغريب ان تكون قاعة العرض مثل القاعات الادبية الحرة اليوم في اوربا ، فعكاظ هايد بارك العرب. لقد كانت عكاظ قاعة للادب وللنقد وللسياسة والتفاخر بالامجاد القومية وكانوا اذا غدر رجل من عكاظ او جنى جناية تنصب له راية الغدر، ويكون تحت الراية رجل يخطب للتشهير بذلك الغادر . ومن كان له دين على احد انتظره في عكاظ ، ومن يريد ان يستصرخ القبائل يحضر عكاظ، وكثيرا ما تكون فيه الخطوبة للزواج المهم، فعكاظ (قاعة الشعب) واذا ارادت قبيلة ان تنبرا من منسوب اليها تأتي عكاظا وتعلن براءتها منه.

وكانت عكاظ مجمعا لادباء العربية وموسوعة للاطلاع ومعرفة الاثار الادبية. فقد قيل ان ابن الاخشيد وهو رأس من رؤوس المعرفة قد جمع كل اثار الجاحظ وعز عليه الحصول على كتاب «الفرق بين النبي والمنتبي» فبث دعائه في اطراف البلاد ولما استيأس انتظر موسم الحج وشخص الى القرى واقام مناديين في عكاظ وفي ترابيع عرفات حيث يجتمع الناس والادباء من آفاق العالم.

هكذا كانت اهمية عكاظ ولما بزغ الفجر في الحجاز غطت مدرسة القرآن على

عكاظ .

وكانت من ناحية اخرى من البلاد العربية مما يلي بادية السماوة وعلى ابواب البصرة سوق ادبية لا تقل اهميتها قبل الاسلام وبعده عن عكاظ .. انها سوق المربد .

ولا يمكنني تحديد نشأة المربد ولكنه ورث عكاظا وبقي حتى القرن السابع للهجرة وذهب بذهاب البصرة القديمة. كما ولا يهمني المربد الاقتصادي انما يهمني المربد الادبي الذي كان اكااديمية البيان والبلاغة قبل تخطيط البصرة . وبعد التخطيط صار مركزا للدعوى السياسية ومنبرا للنشر وناديا للادب ومدرسة لفصحاء الجزيرة الذين يهبطون اليه محاضرين او متاجررين بالبضاعة الادبية . واذا كان لعكاظ فضل العمل على توحيد اللغة وتوحيد الاتجاه الادبي فللمربد الفضل في تثبيت اللغة العربية وضبطها بعد ان كثر الاختلاط بالاعاجم . ومثل ما كان لعكاظ من الاعتماد بالمنبر الادبي، فللمربد اهميته وامتيازه بالمنبر السياسي والمنبر العلمي حتى اصبح معرضا تتزاحم فيه الاداب والمذاهب وقد جدت فيه الوان للادب العربي لم تدركها عكاظ ، فلون لادب المخضرمين، ولون لادب المولدين، ثم انتقلت هذه الاداب من المربد الى اروقة البصرة ونواديها ومدارسها فنشأت مدرسة الجاحظ ومدرسة اخوان الصفا ومدرسة الحريري ، وانتهت مسيرة الادب البصري الى عهد آل افرسياب والسادة الموالي مثل السيد علي خان والسيد خلف وآخر محفل للادب البصري كان بيت آل باش اعيان ومن نبغ فيه من العلماء والادباء .

وعلى طفوف الجزيرة - جزيرة العرب- مما يلي بادية العراق والشام، نهضت فوق مرتفع النجف مدينة الحيرة او كما يسمونها المدينة البيضاء . فكانت الحيرة بادية وريفا من اجمل المواقع ، وكان فيها للادب والمعرفة المحل الرفيع، وقد تجمع فيها الشعر الجاهلي في مقدمته شعر النابغة. وكان حول الحيرة مدارس علم وادب. ومن ذلك التجمع حصلت خزائن الكنز الادبي الشهير. فقد قيل ان النعمان تخير من الشعر فصوصه وكنزها في البيت الابيض (وبقية البيت الابيض اليوم بيت العلويين آل زوين) . ويدلك على مبلغ الادب الحيري افاضات وفد النعمان الى كسرى. والاديب الحيري يحذق الفارسية والسريانية واليونانية ولقد كانت (عاقولا) مدرسة سريانية بقيت الى عهد اليونان في العراق وانتهت اليها دراسات

يونانية وكانت قريبة من الكوفة او بمكانها. ولما درست «عاقولا» نهضت الحيرة فكانت واجهة كبرى للادب وانتقل ما في الحيرة الى الكوفة واروقتها الادبية والعلمية وكان أعلى منبر فيها منبر نهج البلاغة فكان للحركة الذهنية في الكوفة اكبر خدمة للغة العربية وآدابها . فالعراق بالمربد والحيرة والكوفة اشاع اللغة العربية والفكر الادبي العربي وشد البلاد برباط ادبي ووحدة اسلوب . وامتدت مدرسة الكوفة الى النجف فكانت اكبر مدرسة للعلم والادب ومنها انتشرت عدة مدارس . فمن ذلك المنبر العالي المدرسة الكبرى وما نشرت حصلنا على حركة فكرية قوية خدمت الذهن واللغة وترددت تلك الحركة الذهنية بين النجف والحلة فكانت اندية كبرى للفضيلة وسوقا للادب، وتبلوت الحركة الادبية النجفية في نادي «معركة الخميس» الذي كان يعقد في كل يوم خميس، ذلك النادي الذي يصور بحواره ومساجلاته وبحوثه ما بلغه المنبر النجفي في القرن الثالث عشر للهجرة فلو جمع نتاج الخميس لما كان اقل اهمية من كتاب (آمال المرتضى) .

أما من نعرفه من ابطال معركة الخميس فهم آل زين الدين ، آل محي الدين ، آل النحوي، آل الخمايسي، آل الخادم، آل الفحام وقد غاب عنا كثير من تلك النجوم . ثم توزع الادب النجفي على بيوتات النجف ومحافلها الكبرى فما اعذب المنبع وما اغزره . ذلك المنبع الذي سقى شجرة الادب الحلي فكان ممرعا . ومن ذلك الشجر تكون الادب الحلي وعضادته ذلك المنبر «العقد المفصل» للسيد حيدر الحلي الذي بلغ باده مستوى الذروة . وكانت حوليات يحمل الواحدة منها موكبا فخما من الحلة الى النجف في كل عام وتستقبله عباقره النجف وتترك تلك الحولية في محفل ادبي مهيب . والعضادة الثانية «بيت آل القزويني» وما حوتهم حياضهم الأدبية .

اللوحة الثلاثون

1949

الطرائف العربية

-1-

في فترة الحرب العالمية الاولى كان الريف العراقي فاترا وشاغرا من كل سلطة . حتى زعمائه كانوا يتلمقون السلطة ويشترون الظهور بالبذل. وكان الريفي لا يفارق بندقيته ولا ذلك السطر المصفوف على صدره من الخراطيش الصفرة، فاطلاق الرصاص لكل مناسبة، والتوتر شديد ، والثارات علست الشباب. كل يوم وحول القبور زفة، اما العرس فهو العراك المستمر. فوضى عسوف لا صاد ولا راد، اسمع كيف يصفها الخبير البصير «برغش» في قطعة رابعة بلغت من حد الاعجاز في اسلوب الادب الشعبي. وللغة الدارجة كما للفصحى دقائق وخصائص والفاظ مختارة واساليب ممتازة ومجازاة بديعة وكنايات واستعارات مستملحة لا يتذوقها الا من توفر على الادب الشعبي. وارغب ان امهد لتقديم تلك القطعة للادب الشعبي بشرح بعض الالفاظ يقولون «ارض جردم» يريدون انها وعرة ويقولون «فرس رباخ» يقصدون انها لازمت معلفها فلم تتدرب على الجري ولم يخفف من شحمها فهي كسول لا تعرف المشية المتزنة بل تهملج راكبة راسها ويقولون «فرس ملط» اي عارية من السرج والحزام ويقولون لذيل الفرس «شليل» ويسمون الارض «كاع» واذا عرفت ذلك فاليك القطعة الرائعة:

" في ليلة من ليالي الشطرة كنا على مائدة وجيه من وجهائها وبينما نحن في سمرنا روعنا دوي الاجواء بازيز الرصاص ونث الينا النبا ان حيا من الاحياء التي تكتنف الشطرة وهو حي «آل ابي نجيم» اصطدم بعضه ببعض وكان الامر الجلل ان شباب الحي كانوا في ندوتهم صفا يقابل صفا وقد جرهم الحوار على

الشجار فمد كل شخص بندقيته الى صدر من يقابله وتهافت الصفان صرعى ومات الكثير منهم .

وعند الصباح مشى الوسطاء لاطفاء الفائزة وكنت احدهم. وجئنا ذلك النادي الرهيب وقد تصدر الشيخ المحنك «برغش» رئيس الحي وزعامته معقودة على آل أبي نجيم، شيخ هرم كيف يناهز المئة من العمر ابتدرته بلهجة الموبخ قائلاً : يا برغش أنت الآن نصفك نازل او ثلثاك الى القبر وهؤلاء شباب قومك فهل تريد ان تزفهم الى القبور طليعة لمصيرك الوبيل، الا حجزت ما بينهم؟ الا غسلت درن صدورهم؟ الا نزعت ما فيها من حسك الضغينة؟ وتهدج صوت البصير متسائلاً : من المتكلم؟ قيل له فلان . فانعم وقال يا ابن اخي انصفي ، ان «الكاع جرمد» و «الفرس رباخ» وقد جاؤا بها «ملط» و جاؤوا بعمك وهو شيخ كيف قد يبس جانباها وتصلبت شرايينه فوضعه على ظهرها وهو «كومة عظام» وهي راكبة رأسها بلا رسن ولا لجام وقد شكلوا بشعرات شليلها أفراخ القطط وجراء الكلاب وضربوا اضلاعها وقفأها بغلاظ السياط فاقلعت بحوافرها الاربع لا تلوي على شيء، مجنونة مخبولة ، ووقفوا يصيحون يا برغش صدها . قل لي بأبيك كيف اصدها وبأي شيء اردها .

-2-

في موقف من المواقف الحربية يقول المهلب لابي علقمة العبيدي وكان شجاعا ومعروفا بكثرة المجون، قل لاصحابك يعيروننا جماجمهم ورقابهم ساعة .. فقال : اصلح الله الامير ان جماجمنا ليست قحاقا حتى تعار ولا رقابنا بكرات تنبت بعد القطف. قال ذلك ماجنا ولكنه في ساعة الشدة ندب مصاليت قومه فأبلوا بلاءا حسنا وبعد ان ربخوا المعركة رجع ابو علقمة وقال للمهلب لقد وهبنا جماجمنا ولم نعرها.

-3-

وهذه رائعة لمقدم بني المنتفق حيث يرسل جباته الغلاظ الاشداء الى زعيم من زعماء المنتق يطالبونه بالحاح والحاف في تسليم ما تراكم بذمته من الاتاوة، فيقسم لهم انه مصبح بها على الشيخ. وعند الصباح يحضر ومعه حمل بعير، فيقول له

الشيخ وهل حملت لنا ما بذمتك؟ قال نعم، ها هو على ظهر البعير. فأمر الشيخ احد اصحابه ان يتسلم. ولما جاء المتسلم لم يجد الا مرجلا وخوانا في عين من الحمل وفي الاخرى اباريق القهوة. فقال له الشيخ وما هذا؟ انا اريد مالا. فيرد على الشيخ: اني كلما جمعت المال لك نهبه هذا الخوان وهذه الاباريق، فخذ هاذين الناهبين واحبسهما عندك حتى اعذر من الضيوف واجمع لك المال. فضحك الشيخ قائلا انا لا نكفي مواعين الكرام، ولا نوحش بيوت الاجاويد، خذ هذه الرضخة من النقود واعطها لهذين الكريمين.

-4-

يقول الربيع ما رأيت قط أثبت قلبا من كوفي اوقفته بين يدي المنصور لسعاية سعي بها عليه مفادها ان عنده امولا وودائع لبني امية. فأمره المنصور ان يدفع ما عنده، فقال يا امير هل أنت وارث لبني امية؟ قال: لا. قال: أوصي: قال: لا. فرد عليه: فبأي شيء ادفع لك ما تحت يدي من الودائع؟ فرد عليه المنصور ان بني امية خانوا المسلمين في فيئتهم وفي اموالهم وعلي ان اطالب بها لاني ولي امر المسلمين، فقال الكوفي: ألك بينة تثبت ان المال الذي تطالبني به من تلك الخيانات دون غيرها من وجوه المال الحلال؟ واطرق المنصور يطلب الحجة فلم يجدها، ويلتفت الى الربيع قائلا اطلق الرجل فوالله ما خاطبت رجلا مثله في هذا المصر. وقال للرجل: سل حاجتك، فقال: حاجتي ان تبرد الى اهلي بسلامتي فاني تركتهم وقلوبهم وجلة على مصيري. فأمر المنصور بذلك على الفور، ويصيح الكوفي الآن فليسمع الامير بما قبلي لبني امية، ليس لهم عندي مال ولا وديعة قط، واني اريد ان تجمعوا بيني وبين من سعى بي. فقال له المنصور، ولم لم تنكر؟ فقال اني لما وقفت هذا الموقف رأيت الاقناع اليق من الجحود والانكار. ويأمر المنصور باحضار الساعي فاذا هو غلام الرجل وقد سرق وأبق، ولما سئل الغلام، قال: صدق مولاي وكذبت. فقال الكوفي لقد وليتم امر المسلمين فلا تجعلوهم طعمة للسعاة بالسوء. فقال المنصور: لا اعود لمثلها أبدا.

اللوحة الحادية والثلاثون

1950

الوفاء والاخلاص

-1-

ان يوم الطف وهو يوم العاشر من محرم لعام 61 هجري يوم حافل بالغرر واللمع والتصميم على التضحية بصلافة في المبدأ ونبيل ووفاء، معاجز ومفاخر تتجم التاريخ وتسمو به . هذا بطل عزوم يضرب اروع مثل للوفاء وهو في الحومة وفي محنة مستعصية ، رأى سيده قائما للصلاة بين الاسنة والظبي فيقف امام سيده دريئة عن السهام ، وسرعان ما يستهدفه الرماة من الاعداء ولكنه يتلقى النبل بصدرة وبنحره حتى اذا اثخن بالجراح لبث واقفا كأنه شجرة من نبال متماسكا، وحتى اذا فرغ الحسين من صلواته خر الرجل يعالج الموت وهو يقول : أوفيت يا سيدي؟

-2-

في واقعة للحجاج مع الخوارج يشدد فيها البلاء وتكثر القتل ثم يتغلب الحجاج وقائد جيشه قتيبة بن مسلم . وبعد ان يتكشف الخوارج تهيج مرة الحجاج وتزمر نفسه فيأمر قتيبة باعدام كومة . وتمد الاسرى للاعدام رقبة اثر رقبة ويتطاير رأس بعد رأس وتحل صلاة المغرب وقد بقي اسير واحد لم ينفذ فيه الاعدام فارجئ الى الغد وجعل وديعة عند قتيبة سواد تلك الليلة على ان يحضره عند الصباح . وبينما هما منصرفان الى دار قتيبة يقول الاسير لقتيبة هل لك في خير تعمله ؟ قال وما ذلك؟ قال عندي ودائع وعلي ديوان احب ان اردھا الى اصحابها فهل تعينني على ذلك باخلاء سبيلي على ان اعود لك غدا . فرفض قتيبة رجاءه

أولا خشية ان يكون الرجل مخادعا ولكن ما لبث ان ادركته الخصال الحميدة واقتنع بصدق الرجل فخلى سبيله .

وقضى قتيبة مفكرا في مصيره عند الحجاج اذا اخلف الرجل ولم يعد ولكن ما احمر الافق بشفق الصباح حتى عاد الرجل، فاعجب قتيبة وفاءه وانطلق به حتى اجلسه على باب الحجاج ودخل ولما ابصر الحجاج قتيبة قال ما فعل اسيرك قال انه على الباب ثم قص عليه ما كان فلم يكن الحجاج اقل اعجابا وامر باطلاق سراحه جزاء لوفاءه وجزاء لامانته، وقال الحجاج اتحب ان أهبه لك؟ قال نعم. قال هو لك. وخرج قتيبة مبشرا للاسير وشد ما كان عجبه ان رفع الرجل يده وبصره الى السماء وقال : ربي لك الحمد والملك ثم انصرف دون ان يوجه اي شكر لقتيبة . وبعد ايام لقيه قتيبة وعتب عليه فقال : لا تؤاخذني فما كنت لاجد صنيعك ولكني كرهت ان اشرك مع الله احدا احمده على أن من علي بالحياة.

-3-

كانت بلاد الضاحية مثل هيت والرمادي والفلايج وشفائنا والنجف والساوة وبلد الزبير سوقا لعرب الجزيرة مما يلي بادية العراق، فقد نشأنا وقوافل البادية تهبط النجف للامتياز مرارا في السنة وكانت علاقة وتعاط وارتباط بين البيوت التجارية في نجد والنجف خصوصا مع حائل التي يؤمها النجفيون ويسمونها بلاد الجبل لانها تحتضن جبلي اجا وسلمى، وقد نشأ في حائل حي واسع لبيوت نجفية . وليست الصلة بين النجفيين والبادية جديدة فقد كانت الكناسة وكانت البسيطة وكانت المناخة ، وكنا نسمى القافلة البدوية «حدره».

وهكذا كان الامر في مدينة الزبير قد كانت سوقا للبادية وللروابط حتى النسبية منها وثيقة بين تجار الزبير وشيوخ البادية. وقد عرف عن بيت الشيخ بن ابراهيم شيخ بلد الزبير انه كان بيتا تجاريا يرتبط بشيخ من شيوخ البادية. وفي ليلة طرق الباب طارق يطلب مقابلة كبير ذلك البيت وعند الفتح يشاهد بدويين دفعا له كتابا فضه فاذا هو كتاب من أحد الشيوخ يطلب منه ان يقابله في ابي غار ،موقع في بادية المنتفق ،وان يحضر معه مقدارا من الدراهم . فيضع التاجر المال المطلوب في الخرج ويخرج مع الرسولين وكان للتاجر كلب اعتاد ان يصحب الفرس للصيد ولما رأى الفرس تجري تبعها . ولم يسلك الرسولان الطريق المألوف ، وفي مكان

خلوي وتحت أثيلات البادية يثب الرسولان على التاجر ويوثقانه بحبل ويذهبان بالفرس وما عليها من مال . اما الكلب فيتبع الفرس ثم يعود الى صاحبه وبعد ان يبصص حوله ذهب وعاد يهرول وعالج عقدة الوثاق باسنانه فحلها، واخذ يبصص حول صاحبه وهو يعدو قليلا ثم يعود وقد كثرت منه الهرولة والعودة حتى عرف صاحبه انه يقصد شيئا فتبعه واذا به يجيء الى نبع ماء ، وسرعان ما يترك صاحبه ويهرول بشدة نحو المدينة ويذهب الى الدار وأخذ ينبح وينبح . وانتبه له اهل الدار وظنوه جائعا فرموا له رغيفا فعض عليه بنواجذه وكرر ذلك حتى جاء صاحبه والقي الرغيف بين يديه وعاد مهرولا الى الدار. وقد افتقد ابناء التاجر والدهم ولما عاد الكلب ينبح وينبح قال القوم ان له شأنًا. ولما جاءوا اليه اخذ يبصص ويهرول امامهم فتبعوه وكان يهرول ويقف لهم مبصصا حتى جاء بهم الى والدهم ، فعجبوا من ذلك ورجعوا بابيهم وقد قص عليهم ما جرى فتعلقوا هم وأبوهم بالكلب، ومكث والدهم لا يتناول طعاما بدون ان يشاركه الكلب واذا نزل عليه ضيف مهما بلغت درجته تمد المائدة ويؤتى بطراحة صغيرة تفرش بجانب الوالد مجلسا لذلك الكلب ويناوله اطيب ما على المائدة من اللحوم. واذا ما تعجب الغرباء قص عليهم القصة وقال لهم : هذا بعض الوفاء لذكائه .

اللوحة الثانية والثلاثون

1950

طالب جاسم العزاوي في كوكب الهواء

كوكب الهواء حصن روماني قديم يقع في منطقة الجليل الجبلية من فلسطين. وكم لنا في فلسطين من لوحات رسمتها عزتنا وبطولتنا ابتداء من صلاح الدين ان لم اقل من يوم نبوخذ نصر الى عام 1948 ، ذلك العام الذي ادت فيه البطولة العربية واجبها ، ولكن السياسة خارت وخانت فذهبت هباء تلك الدماء الزكية وغابت في قمة كوكب الهواء وغيرها من قمم الجبال في فلسطين بدور ونجوم لنا. فكم في كوكب الهواء ودير ياسين من قبور ، لا بل صور لبطولات شهدائنا.

ان كوكب الهواء حصن اشم امنع من عقاب الجو يقع في الشرق من وادي الاردن . و ارادت القيادة حماية الجيش العراقي او جناحه الايسر الذي كان قد تسلق المرتفعات وتنزى الهضبات متجها نحو الغرب فتنهدت لتلك الحماية كوكبة عراقية استهدفت احتلال كوكب الهواء، وفي مقدمة تلك الكوكبة بطل عراقي في ريعان الشباب ومقتبل الصبا يلتهب حماسا وهويدعو للشجاعة والاستبسال اخوانه الذين شمروا لمقاتلة جنود تزيدهم عددا وعتادا . اندفع اولئك المساعير وكل واحد منهم صارم ذكر. لقد كانوا في الحومة يقدمون لقائدتهم البطل «طالب جاسم العزاوي» كل اعجاب واحترام. لقد كانوا متحمسين غير مباينين بخطر المهمة مستسهلين صعوبة الواجب العسر وملبين امر القائد ببذل غالي الدماء في سبيل القومية والوطن ، وقد ادركت القيادة جسامة المهمة التي تطع لها البهاليل فاسرعت الى امدادهم بسرية ثانية ولكن ما ضاقت شمس ذلك اليوم التاريخي 1948/5/17 الا ونفض الاسد العزاوي وفرقته في وسط حصن كوكب الهواء

وامتلك ذروة ذلك الجبل الذي كانت قمته مكللة بجيف الصهيونية . واهتزت اسلاك البرق هنا وهناك تنتث النبأ بالبشرى الكبرى . وهلل النصر المبين بالاستيلاء على كوكب الهواء فكان اسم طالب جاسم بسمة على كل ثغر عربي. وزلزل الصهاينة هول الخسارة وما يتوقع ان يحل بهم من خسف وهوان اذا رسخت القدم العربية في ذلك الحصن المشرف على الوادي وعلى الطريق الاعظم لذلك الوادي. فجمعوا قطعاتهم المنتخبة والمسندة بانواع السلاح وكراديس الامداد وسارعوا في مهاجمة اولئك المصاليات الذين لم ينفضوا بعد غبار واقعة الهجوم ولم تكن تصلهم سرية الامداد حين ذلك.

وهنا ظهرت المعجزة للبطولة ولمعت مناقب الرجولة على قسماات تلك الوجوه البيض لاولئك الافذاذ من جمرات العرب وهامات العشيرة وانضاد البلد. وتقدم البطل طالب يكافح بعزم لا يفل وانقض انقضااض النسر منتقلا من الميمنة الى الميسرة وثبت في القلب بعد ان نشر الجناحين ولقد يسر المجد ان يستشهد ذلك البطل كما يريد وكما اراد له الشرف العسكري.

لقد استشهد والابتسامة تعلو شفثيه بما اداه ولما قام به ويحق له دون غيره أن يقول قمت بواجبي وليس الشعب الى الامام ويحق لي ان اقول بيض الله تلك الوجوه التي بلغت القمم ، وسود الله تلك الجوه التي انزلتها السياسة الخائنة الى درك الحضيض .

اللوحة الثالثة والثلاثون

1951

مضاء العزيمة وعاصم بن عمر

ما أجل وما أجمل مظهر البطولة ومضاء العزيمة ! منظر ملؤه الرهبة وموقف كله اعجاب، المدائن واخوانها لعين سعد والميامين من جنوده حلم يتحقق فتبتسم فيه العيون وتخفق له القلوب . انه لفتح يبز كل الفتوحات . يومك يا محمد . هذا الايوان الذي مزق فيه كتاب البشير النذير . هذا سرير سابور الذي زاحم مناكب العرب واكتافهم . هذا هو عرش اردشير الذي ترك الحيرة في حيرة من غطرسته وجبروته . هذا هو الايوان الذي رام ان يلطم بني شيبان بسيفه فلطموه بسيوفهم . ويصيح سعد محفزا ابطاله هذا يومكم الموعود . فلم تكن في العالم قوة تستطيع ان تكفف الغارة دون ان تخاض دجلة من المدائن الغربية الى المدائن الشرقية ، اجل وقف ابطال العرب على دجلة الطاغية يوم ذلك فتصايحوا ما تنتظرون بهذه النقطة ان تخوضوها . اتدري ايها القارئ الكريم ما هي النقطة التي يستهدفها البطل العربي ابن الغدير والركايا يستهونونها، ويريدون ان يخوضوها على ظهر الخيل ، هي دجلة الخوارة الفوارة خصوصا وان زمن الفتح يصادف ذلك الفيضان العظيم الذي يعاودها بين فترة وفترة . نعم وقف ابن الغدير والحياض على ذلك الوادي المفعم الرهيب، وقف على ام البطايح التي كثيرا ما عجزت متونها ولم تقدر على لمها فتعود وتتفتق . وقف ابن البادية يسمع التيار وصخب الامواج في واد يغور ويمور ، فما نكس ولا نكص ولا خار ولا حار . ولكن يعزم سعد، وعزم سعد روح الجيش ، ويصرخ قائلا : يا ابطال العرب ان عدوكم اعتمص بهذا، مشيرا الى وادي دجلة وقد عزمت على خوضه . فقالوا : عزم الله لنا ولك على الرشد . فصاح : هيا من هو البطل الذي يتقدم لنا الغراض حتى تتلاحق به الخيل ؟ فانتدب

له عاصم بن عمر ومعه من ذوي البأس وأهل النجدة ستمئة فارس مقتحمين الوادي الرهيب يرفسون دجلة بحوافر خيولهم، واستقبلتهم المدافعة على الغراض فقاتلهم اشد القتال وتلاحق الجيش يتقدمه سعد وانهم يتحدثون في النهر كما يتحدثون في البر وقد طبقوا دجلة حتى ما كان يرى من الشاطئ شيء فخرجوا وخيولهم تنفض اعرافها . وقد رأى المغلوبون امرا لم يكن بحسبانهم فانزاحوا مولين الى جلولاء وانتهت نوبة سعد فكانت الخاتمة الحسنة. وكما كانت البداية على اليد العراقية يد المثني بن حارثة كانت النهاية على يد عراقية يد النعمان بن مقرن المزني .

هذا يوم المدائن الاول وقد شهدنا للمدائن يوما ثانيا اروع وأهول . ففي اواخر عام 1915 واول عام 1916 كانت الجيوش الانكليزية الضخمة تطوي المدن والمواقع العربية على عروتي دجلة وتقفزها قفزا وآمالها تصيح بها : الى بغداد ..الى بغداد ..ولكن تحطمت على صخرة المدائن وتلاشت الاحلام . لقد كانت المدائن يومذاك والمنايا موائل و (طاوزند) يزجي الصفوف التي اذلتها الصدمة واجفلتها الروعة فشاع ما بينها الوجوم وعادت ململمة لا تسمع جلجلة السلاح ولا همهمة الرجال بل خرست تلك القعقة حتى كأن الجنود بينهم لهم اشارة خرس. وقد كنت مع النافرين من النجف للدفاع عن عاصمة العراق المهددة بالاحتلال وكنا ونحن مصعدون على الفرات في اتجاه سدة الهندية نسمع دوي المدافع المصوبة الى خنادق المدائن . وما بلغنا مدينة المسيب الا وطلعت علينا البشري بفشل الحملة وانتكاس الفلول وان العراقيين ضربوا بحوافر خيولهم حوض دجلة وانقضوا على المتراجعين دافعين لهم من المدائن الى مواقع «العزيرية» ومنها الى مواقع «الكوت» ،التي اطبقوا عليها مشددين الحصار على الناكسين وقد طوقهم من كل الجهات من «الشويكة» و «الجبابات» ومواقع مدينة «السن» وموقع «منصور ابو الحسن» والبيروقية حتى عز على الانكليز فك الطوق فلا المحصورون يستطيعون الافلات واللاحق باخوانهم المعسكرين في اعالي دجلة كما لم تتمكن الامدادات الهائلة من النفوذ الى الكوت لا عن طريق دجلة العمارة ولا عن طريق دجلة الغراف لان المناضلين صمدوا لهم هنا وهناك فاضطرت تلك الآلاف من الجنود الى التسليم. ودخل ذلك القائد الحاكم بغداد مأسورا مخذولا لا فاتحا مزهوا.

اللوحة الرابعة والثلاثون

1952

التضحية عند العرب

-1-

في عهد هشام بن عبدالملك توسعت الجيوش العربية في أعماق آذربيجان، وكانت لهم حامية في مدينة «برذعة» ثار عليها المتألبة من الاتراك فطوقوها، ووهت قوى المدافعين العرب فاستضعفها الاتراك وكادوا يملكون المدينة ، وبلغ النبأ القائد العربي سعيد الحرشي فينهد بجيشه لاستنقاذ الحامية العربية ، وكشف المتألبين عن المدينة، وسرعان ما انفذ أحد اصحابه المغاوير الى حامية المدينة يخبرهم سرا بتوجه المدد وشخص القائد سعيد حتى يتماسكوا بالصبر ريثما يدركهم اخوانهم. فسار الرسول حتى دنا من الموقع وتحس به ربية للترك فتمسكه، ولما جاءوا به الى مركز قيادتهم سألوه عما جاء به فكتم أمره، ولما نكلوا به اخبرهم قائلاً : اني رسول القائد سعيد أحمل ما ينفعكم . قالوا : وما هو ذلك النفع؟ قال : اني مبلغ هذه القوة المحاصرة ان يسلموا المدينة لان انقاذهم ليس بالمستطاع وعبثا ينتظرون الغوث وانا اعرف اصحابا في الحامية يثقون بي، اتركوني انطلق حتى أوافي السور وابلغهم بذلك فأكون قد خفت عليهم وعجلت لكم الفتح . فأجابوه الى ذلك وارفقوه بخفراء أوصوهم أن يحافظوا عليه ويتحفظوا منه . فجاء رافلا بقيوده حتى دنا من السور حيث يسمع وينادي الحامية :

- اتعرفوني ؟

- نعم

- اعلموا اني رسول سعيد اليكم وقد وصل الى مكان كذا في مئة الف سيف وهو

يأمركم بالصبر والجلد فان الغوث مصبح أو ممسي . واثناء ادائه الرسالة القومية عرف الخفر مخاتلته فكانت كلماته تتصاعد وسيوف الخفر تنهاوى عليه حتى اتم ما عنده وأتموا ما عندهم فخر موزع الاشلاء وارتفعت اصوات الحامية بالنخوة والتكبير .

-2-

وفي القرن الثالث عشر للهجرة يشتد النزاع بين المشيخة العربية في العراق والسلطة التركية ، وقد كانت الوضعة في البصرة والمنتفق والعمارة والحلة والديوانية وحتى مدينة النجف ، وضعة عشائرية يديرها العرف والتقاليد ورؤساء الوحدات الادارية - الشيخ أو الزعيم - ولكن ولاية الاتراك كانوا قد وضعوا للعراق خطة راسخة. تروح الرجال وتجيء .. اما الخطة فلا تروح ولا تجيء ، وتلك الخطة هي هدم النفوذ العربي في ضفاف الرافدين وطرد الزعامة العربية من عرينها بحجة احلال النظام والقانون. وقد بالغ الاتراك في فرض اهدافهم الامر الذي اثار العداء بين الحكومة والاهلين. وتتكسر الاتراك للبيوت العربية فكثرت الوقائع مع عشائر طي في العمارة وعشائر المنتفق في الفرات الاسفل - العوجة - وسوق الشيوخ - وفي نواحي عفك - والدغارة - مع باهلة -وبني الاقرع، ومع قشعم في ضواحي كربلاء ومع عشائر العبيد في ضواحي بغداد . فكم أريقت دماء وأبيدت أسر وهاجرت قبائل. وكم من الواح عربية رفعت للتاريخ في تلك المواقع ومنها لوحة «قبائل الدغارة» حيث يهجم الجند ومن والاهم من الدهماء على قبيلة زعيمها الشيخ ناصر ويطلقون مواقع القبيلة ويشددون عليها الحصار ، فيقوم الشيخ ناصر باقصاء الغرباء عن عرقه والمختلطين بقومه طلبا للعافية في اوقات الدعة قائلا لاولئك الخليط : انجوا بانفسكم فان الحمل الثقيل لا ينهض به الا أهله، والدار تحمى بأهلها! ثم يجمع ابناؤه وذويه في قلعة للدفاع وتقف تلك القلعة صامدة في وجه المهاجمين وتصدهم ان يقربوا الى حيهم المنيع.

ويهتم المهاجمون بأمر تلك القلعة التي استعصت عليهم وأعياهم اقتحامها، وبعد التفكير يصممون على تعيين هدف من ستائر سطحها ويجمعون مئات من الرماة ويطلبون اليهم توجيه بنادقهم ليطلقوا رصاصها دفعة واحدة «لمة» على ذلك الهدف من الستائر التي كانت من الطين المجفف لا تقوى على مقاومة تلك

المجموعة من الرصاص المرمي دفعة واحدة فتتخرق احدى الستائر وينكشف للناظرين المدافعون الذين اصبحوا عرضة للخطر. وعلى هذا التصميم يتم الامر وينفتح الخرق فيجئ الشيخ ناصر ويقول لابنائهم اما انتم فبارك الله في سواعدكم والآمال ملء اهابكم والحيوية تجري في عروقكم ، ولكني شيخ هرم لا أطيق حمل السلاح ، وقيادتي الحربية قليلة ولا خير في أب لا يسد الثغرة عن بنيه ، انا اكفيكم شر هذه الثغرة وأسدها بجسدي وهو أحسن عمل اشاطركم به المحنة، ثابروا أنتم على مجهودكم . ويجيء الشيخ ويعطي ظهره للثغرة ووجهه المتهلل لاشباله جالسا برزانة ليكون ظهره سدا رصينا ، ويشاهد المهاجمون هذه التضحية فيوجهون اليه الرصاص المنهمر وعندما يشعر الشيخ ناصر بحرارة الرصاص يتماسك ويحرق بأسنانه قائلا :

«عليّ .عليّ.» يا له من نصيب خائب يحوجني الى نخوة، علي فقط ، دون أن أذود وأذوب.

اللوحة الخامسة والثلاثون

1953

الزعامة

في القرن الحادي عشر للهجرة والزعامات في العراق تفتسم السلطة والنفوذ ، وقد استفحل امرها في القرن الثالث عشر من عام 1869م واخذ مدحت باشا بالتقليص في ذلك النفوذ حتى كاد ان يطوى، ولكن في العقد الاول والثاني من القرن العشرين للميلاد والرابع عشر للهجرة طلعت زعامات ثلاث حول حدود العراق الجنوبية حيث نبغ عبد العزيز السعود في الرياض ومبارك الصباح في الكويت والشيخ خزعل بن مرداو في الاحواز ، رجالات ثلاث من رجالات العرب جمعتهم العبقريات ولفهم الطموح للمجد حزمة واحدة في وجه الحكم العثماني والايرواني وكثير من الامارات والمشيوخات فشقوا طريقهم الى ذلك الحكم . لقد كانت كل حياتهم مغامرات ناجحة ومواقف حاسمة ونبوغا مدهشا ونفوذا مسلطا ونصرا يعقبه نصر بدهاء في السياسة وحكمة في الادارة وبطولة في الحروب.انهم عبدالعزیز ومبارك الصباح وخزعل آل مرداو. لمعوا مجتمعين ومنفردين وقد تساندوا ماشين بخطى متزنة الى الغايات الحميدة فبنوا امجاد تاريخ جديد للعرب .

-1- الشيخ خزعل

في القرن الثامن عشر للميلاد كان قطر الاحواز وسقي قارون مستقلا، والحكم فيه لعشيرة كعب التي انتقلت من عراق البصرة الى الاحواز بزعامة الشيخ سلمان ومن قبله الشيخ غيث ثم الشيخ جابر ثم الشيخ مزعل ثم الشيخ خزعل، وكانت «القبان» عاصمة كعب ثم انتقلت الى المحمرة المركز المهم لحوض قارون وشط

العرب والمحمرة وهذه راكبة على متن قارون. وهي وان كانت حديثة النشأة الا ان اسمها اسبق منها بكثير ففي القرب من المدينة اطلال خرائب المحمرة . وكانت امارة المحمرة لكعب ومشيختهم في آل محيسن وهم فخذ من كعب وجدهم الاعلى مرداو . وعرب المنتفق تطلق على الشيخ خزعل بن مرداو. وفي اواسط القرن الثالث عشر للهجرة اختلفت كعب مع والي العراق علي رضا فضربهم ونكل بهم واحتل المحمرة وجعل فيها حاكما اسمه عبد الرضا كما جاء ذلك في الجزء السابع من كتاب العراق بين احتلالين .

وقد كانت الحدود الايرانية العثمانية غير واضحة المعالم، تلك الحدود الممتدة من الاحواز الى جبال كردستان والنزاع الحربي والسياسي قائم بين الدولتين، وقد عقدت معاهدات للحسم ولكن النزاع كان يتجدد حتى عقدت معاهدات «ارض روم» عام 1263 للهجرة، وبواسطتها انتقلت السلطة الرسمية على الاحواز وسقي قارون بما فيها المحمرة الى الحكومة الايرانية وانتقلت السليمانية بكاملها الى الحكومة العثمانية ولكن مشكلة الحدود لم تحل تماما، وقد ورثتها الحكومة الوطنية العراقية. كما ولم تتأثر الاحواز بتلك المعاهدة الرسمية بل بقيت الحركة الاستقلالية العربية التي انتقلت من بني أسد الذين هم اهل الحويزة الاصليين الى كعب حتى عهد الشيخ خزعل المتصف بالرجولة والصلابة وكانت له شخصيته وطموحه، وله الاتصال والاطلاع على احوال كافة البلاد المجاورة من الخليج وايران ونجد والعراق. وكان لعرب الجنوب التقاف حوله لوثوقهم بحسن تصرفه وادارته كما نوه بذلك الدكتور محمود علي في محاضراته صفحة 71 . واخيرا كانت عائلة الشيخ المسؤولة عن جمع الضرائب من سكان المنطقة . وقد ورث الشيخ من عائلته ثروة طائلة وكان يساهم بمشاريع كثيرة ويملك سفينة حربية وعدة زوارق مسلحة وكان على استعداد بان يدفع للميدان 4000 مسلح. وكان يتجاهل الشاه ويؤمن بان الوقت قد حان لزوال القاجاريين ، وقد حزم امره على الاستقلال ولو اقتضى ذلك الصراع مع الجيش الايراني . وفي تقرير سري وضعه العقيد «ميد» المقيم البريطاني في الخليج «انه في حالة حدوث حرب بين الشاه والشيخ فان الشيخ يتلقى المساعدات من جميع العرب الذين يسكنون في الجنوب من دجلة ومن قبائل المنتفق ومن سكان البصرة نظرا لنفوذه الواسع» . وكان الشاه يحقد على الشيخ مقامه ويغار من مركزه وكانت سياسة الشيخ في

الاحواز تمنع الحكومة الايرانية من احداث اي تغيير. وكثيرا ما ابدت بريطانيا استعدادها للدفاع عن مركزه ولكنها اخلت بوعودها عندما شعرت بان مصالحها تقتضي تغيير الحصان الذي تراهن عليه ، وتركت الشيخ فريسة لرضا شاه . وكان الطموح قد بلغ بالشيخ ان يرشح نفسه للعرش على العراق عام 1921 ، فبث الدعاية في جنوب العراق وارسل العاملين الى النجف وكربلاء وفي مقدمتهم الشيخ عبداللطيف الجزائري ، وجاء في تاريخ قطر صفحة (115) بان الشركة الانكليزية للنفط استمرت على التعامل مع الشيخ مباشرة متجاهلة الحكومة الايرانية التي اتهمت المسؤولين الاوربيين بتشجيع الشيخ على الانفصال. ولكن جواب الشاه رضا كان سريعا وحاسما على هذا التحدي اذ قبض في عام 1925 على الشيخ وجاء به مخفورا الى طهران وتم انتزاعه من كرسيه وارضه وعشائره وبقي هناك في اقامة اجبارية حتى مات او قتل .

-2- الشيخ عبدالعزيز بن عبد الرحمن السعود :

في عام (1282) هجرية مات فيصل بن تركي أمير نجد من آل السعود فتنزع اولاده . ويهتبل الفرصة محمد بن عبد الله آل رشيد حاكم «حائل» الذي نصبه السعود فانتنفض عليهم واستولى على نجد بمعونة الحكومة العثمانية ومعونة ولدي محمد علي باشا خديوي مصر ابراهيم باشا وطوسون، فانهارت الدولة السعودية الثانية ووقع الكثير من آل السعود في الاسر . ولكن الامام عبدالرحمن وولده عبدالعزيز لجئا الى الكويت لما بينهم وبين آل الصباح من وشيجة رحم وكان عبدالرحمن قد قعد به تقدم السن وهدمته الصدمة، اما ولده عبد العزيز فشاب تلوح عليه مخايل الفتوة وشارات الحزم . وكان يقرب الجمر ويستلم التدبير لاسترجاع ما فات ، وقد نهذ مباريا للشيخ مبارك الصباح يشاركه المغامرات والحروب حتى كأنه قائد من قواده، والصلة بينهما صلبة وطيبة . ولما لم يكن بازاء عبدالعزيز عميرة كبيرة غير المنتفق فكر في استنفارهم وكان مقدم المنتفق يوم ذاك الشيخ فالح السعدون وكان نازلا بادية «الكار» وهو نهر جاف يقال انه بز النيل الذي احتفراه او كراه الحجاج.وعندما هم عبدالعزيز باستنفار المنتفق شد ركابه قاصدا فالح واليك النبأ الذي قصه علي الشيخ ضاري الفهد السعدون، والشيخ ضاري نبيل يلمع بالفطنة وتدور عروقه بشرف المحتد ، حذق صدرا من الادب العربي

والتركي وقد رشحته آدابه ودمائة خلقه ان يكون سفيرا لزعيم المنتفق .
لقد حدثني بمثل رائع عن شخصية عبدالعزيز السعود قائلاً : كانت مضارب الشيخ
منتشرة في بادية الكار وفي ضحوة يوم ونحن في مضيف الشيخ تطلع علينا خمس
ركائب، ولما دنت عرفنا مقدمها عبدالعزيز السعود فاستقبل بما يليق به وضربت
له مضارب خاصة مزودة بما يلزم حسب عادة آل السعودون مع الضيف المحترم.
وغب اقامته ثلاثا بحفاوة وتجلة يحسد الشيخ فالح انه جاء لاستنفار المنتفق
وفزعتهم لاسترجاع الرياض ، فدعاني للاعتذار منه وارفقني بخمسة اكياس
«مزاود» في كل مزودة الف ليرة ذهبية وحمل بعير من الكسوة الفاخرة وخمس
بنادق من النوع الجديد «مارتين» قائلاً لي قدمها الى عبدالعزيز وقدم له اعتذاري
وان هذه الهدية للرفقة والنقود يصرفها لقواته. فجننت عبدالعزيز وهو في مضربه
وبيده محضرة ينكث الارض بها فقلت له عمك يعتذر وهذه اقل عون للرفاق الذين
معك. فما كان منه غير ان ضرب الارض بخيزرانة قائلاً : يا رفاق : الركائب .
والتفت الي قائلاً بلغ العم اني جننته ليوم من ايام العرب لا للاسمال والبدر . وركب
لفوره عائدا من حيث أتى وتركني وما معي .

وفي عام 1319 للهجرة اعترم القيام بالمهمة على اساس « الحمل الثقيل لا ينهض
به الا أهله» فغامر بنفر قليل وعون الشيخ مبارك واستولى على الرياض
واسترجع الدرعية وهزم آل رشيد وقتل عاملهم واسس بذلك العمل الجبار الدولة
السعودية الثالثة .

وفي عام 1340 هجرية وبعد معارك ضارية انهارت امارة الرشيد واستولى
عبدالعزیز على حائل وتوالت مغامرات عبدالعزيز متنقلا من نصر الى نصر
حتى عام 1913 ميلادية استرجع الاحساء ثم مشى الى العسير فاحتلها.
وفي عام 1922 للميلاد فتح الحجاز بعد حروب دامية في «تربه» وغيرها من
الحدود الحجازية النجدية واقتلع الشجرة الهاشمية من مغرسها.
وقد راقب الانكليز ظهور عبدالعزيز فوجدوا فيه شخصية فريدة في القيادة
والسيطرة .

لقد كان الزعيم الوهابي زعيما بدويا كغيره من مشايخ الجزيرة ولكنه سعى حتى
تبوأ العرش بجدارة ، واصبح كما قيل "نابليون الصحراء " . فتدرج من امير نجد
وإمامها الى ملك المملكة العربية السعودية الكاملة الاستقلال والسيادة من البحر

الاحمر الى الخليج العربي ، وكانت دعامتا هذا الملك العريض هما : البلاد العربية المقدسة ومليارات الذهب الاسود .
من آبار الاحساء وبأعماله اختط سيرة مليئة بالامجاد والعبقريات وبواسطة الاحساء تبوأَت الدولة السعودية الثالثة منزلة فريدة واعطتها اهمية سياسية واقتصادية . وفي عام 1953 طوي ذلك السجل الحافل ومات عبدالعزيز تاركاً الامانة في عنق ولده سعود .

اللوحة السادسة والثلاثون

1954

الجوء عند العرب

كم من معاجز اخلاقية للعرب وكم من مناقب منها المبالغة في حق اللاجئين والمحافظة على حقوقه ..وكم تحملت العشائر العراقية في سبيل اللاجئين من كرب ومشاكل صعب حلها الا بالسلاح . وهم يسمون اللاجئين بادق تسمية، يسمونه «قصير» اي العاجز عن القيام بشؤونه واليك لوحة تاريخية عن ذلك القصير .

نزل لاجئ على حي للعشيرة المعروفة بأل «الضفير» وهي من عشائر بادية العراق وحلفاء بني المنتفق. فاکرم زعيم الحي وفادة ذلك اللاجئ وفي يوم من الايام اصبح اللاجئ راحلا بدون وداع ولا استئذان كما هي العادة . فتعجب الزعيم وقال :

«من يفحص لنا اثر «قصيرنا» ويقتفي آثاره وأخباره» . فيذهبون للاستطلاع ويرجع احدهم بكور غزل كبير قائلاً :

لم نجد غير هذا الكور الثقيل ولما فحصوه وجدوه مطويا على رأس بنت اللاجئ فبيهت الزعيم حائراً.

ولكن احد الحاضرين يهمس في اذنه قائلاً : ان لأحد ابناء الزعيم علاقة غرامية مع هذه البنت. وعلى الفور ينهض الزعيم الى بيته الخاص داعياً اولاده واخوانه ويجرد سيفه عارضا له على مكان بطنه ويقول : تخيروا ما بين حياتي وحياة «أصبيح» وهو ابنه المتهم، اما ان تقطعوا رأسه حالا او اغمد هذا السيف في احشائي ، اسرعوا فان الامر جد . وما ان اتم خطابه حتى طاح رأس صبيح بين

زجل اخوانه بالنخوة وبين بكائهم . فاخذ الزعيم الكور ونزع منه رأس الفتاة وطواه على رأس الفتى وقال اسرعوا واوصلوه الى الرجل وقولوا له لعلك نسيت هذا الكور . وقام الزعيم بدفن ولده العزيز ولما لحقوا باللاجئ عرفوه بالامر ودفعوا له الكور ورجع معتذرا وشاكرا وجددوا اكرامه وبالغوا فيه .

اللوحة السابعة والثلاثون

1956

تطوير تاريخنا القومي

نريد تاريخا امجاده تتكلم بل تترنم، يثير ويبعث ، نريده تاريخا جديدا للعرب . لقد ذهل التاريخ ودهشت الدنيا عن قرون اربعة للعرب مرت بالخوارق والمعاجز . يا للروعة! وثب العرب الوثبة الخاطفة من الجزيرة الى بلاد الحضارة ومراكز الرقي بحماسة وحرارة ايمان ففاجأوا اوسع انحاء المعمورة بأضخم وأروع المثل مفاجأة جبارة قهرت كبير الروم وعظيم فارس . وبعد النكسة ولف اللواء طيلة عشرة قرون يريد الرأس الحاسر ان يرتفع بنهضة جديدة تعيد تراثا وتجدد امجادا وتسهم في رسالة الخير ملمعة محاسنه ومفائنه وتجيء بتطوير للتاريخ او بتاريخ للتطوير، وطرفا ذلك التاريخ الماضي والحاضر . وبما ان حلقات الحاضر لا تزال بين الصهر والمطرقة فاني اشير اليها لانها موضوع لا تحققه جهود فرد وانما هو مجهود امة ومهمة اقطار. ولكن لألأة البشائر تلوح في الافق معلنة بان الامة مشغولة في صوغ حلقاته ولسوف يتم السبك والافراغ فيجيئ وضاء النهار. لقد صاح الدهر في وجوه العرب مرتين الاولى قبل البعث القومي حيث غمرتهم الحوادث فكانت العصبية مفتنة والوطن تمزقه الاقليمية، ولكن توافرت عناصر التكوين فتجاوبت الانحاء واشرببت الاعناق يتشوفون فانوسه من جانب الوادي حيث بزغ الفجر وارتفع النهار واذا بالقائد يلوح للرفاق والبناة تتراكض. وها نحن اليوم يصيح الدهر في وجوهنا مرة اخرى . ولكن اوشك الصهر ان يكمل وقاربت عناصر التكوين ان تتوافر. لقد نفضنا برؤوسنا ومددنا الاعناق ورسمنا العيون في الافق مستقبلين حامل المشعل تزدهم حوله الرفاق لبناء الصرح التاريخي

الجديد . نحن امة تاريخية في اللمع والمناقب وشعب عريق في العنعنات والشعائر، لنا اسس وعناصر كونت قوما لهم وحدتهم تلك الوحدة الكاملة التي لم تندمج ولن تتهجن بل رسمت صخرة تتحطم عليها الشعوبيات . لقد تلون الدهر بالوانه فلم تصطبغ بغير صبغتها . ان عروبة اليوم هي عروبة الامس برغم ما لبست الدنيا وما نزعت . لقد تعاطى العرب كغيرهم سائر نظم الحياة ولكنهم مع كل فجر ثابروا على الديمقراطية والحرية والنزوع الى الاستقلال . لقد اتصلنا بالشعوب واتصلت بنا فلم تنقص حيويتنا وكفاءتنا عن حيويتهم وكفاءتهم . لقد كانت لهم طرق تجارية واسواق ووفود وكانت لنا لغة ثرية وخط وآداب ودين وفلسفة تكونت منها نظريات جديدة في الكون والاجتماع . وكانت لنا تأليف وفنون جميلة وابداع . وتوسعنا فكانت لنا فتوح استلزمت وجود احزاب وشيع وتكتل وقد تناسقت موافقنا وتساعدت مواهبنا ودامت رسالة العربي روحية وأدبية تتردد بين الحق والخير والمال تحييطها هالة من الطوباويات والخيال الفاتن تراها واضحة في لمعات الصفات الثابتة للعربي وهي الشهامة والنجدة وتمجيد الحرب للاخذ باسباب البطولة مع عدم الاكتراث بربح الحرب او خسارتها، واعزاز الجوار والايثار والمحافظة على الشرف وابعاء الضيم والحلم والخشوع للحكمة والولوع بالشعر ومعاجز البلاغة وحب الثروة المعنوية .

ان العربي البدوي لا يهتم بالفقر المادي ويحتقر البخل وهو صادق في لهجته متواضع، قليل الكلام واذا تكلم تكلم بالمساواة بين اللفظ والمعنى ، حسن الاصغاء ميال للجد ، ابتسامته اكثر من ضحكته ، كظوم قد تنفر عروقه وتثور روحه ولكنه ساجي الوجه مشرق الاسارير مضاء في الامور . ان للغة والحريية البدوية معاجز ي تاريخنا وعلى حسابها هاجر الازد من اليمن بعد ان اصبحت محتلة، فتجمعنا وحصلت البركات من ذلك التجمع، فمن الغلط ما قيل ان سبب الهجرة انهيار سد مأرب حيث سبب علة الخصب لان الازد لم تهجر الى مكان اخصب وانما الى مفاوز الجزيرة وسباسبها الجرداء . لقد كان السبب هو عزة العربي لأن اليمن منيت بالاحتلال وهددتها الشعوب غير العربية فانصدعت عزتها وتأثرت حرية العربي فهاجر الى منابت العز مختارا جوار الاهل الخالص . اذا عرفت هذه العزة للعربي وعرفت ان للجزيرة العربية في غابر الدهر ثلاثة مراكز مهمة (اليمن ومكة وبصرى) تعرف جيدا اسباب اهتمام العرب بمكة واتجاههم اليها من

اليوم الاول دون الطرفين الآخرين. ذلك لان بصرى تحت النفوذ الروماني واليمن يحتلها الاحباش تارة وتارة الفرس واحيانا مهددة . اما قلب الجزيرة فأم القرى ، لم تروع الا في واقعة الفيل الفاشلة فهي خير محطة للعزة العربية وأحسن مركز للحرية الغالية . هذا هو سبب اتجاه العرب الى البلد الامين دون بصرى واليمن ، وقد تطور هذا الاتجاه واعتز العرب بمكة المكرمة ففي كل عام ينسلون اليها من كل حدب وفي كل يوم يتجهون اليها مرات عديدة . ان مكة المكرمة وعزة مكة هي التي مكنتنا من تأسيس امبراطورية جبارة نعتز اليوم بكل مخلفاتها . من تلك المخلفات المعاجم التاريخية التي نريد ان نعالج امرها هنا . نحن ولا شك في حاجة الى تاريخ قومي يلمع طابعه على نواحيه العلمية والادبية والسياسية والاثرية والنفسية وما في هذه النواحي من اعتداد وكرامة. نريد موسوعة ممتدة ، نخلص منها كتباً صغيرة تغذي المنهاج القومي في المدارس فنجعله منهاجاً يمحو من تاريخنا كل بغيض. نحن في حاجة الى تاريخ اغراضه تعزيز العزة القومية بالامجاد وبالمثل . نريد ساحة مغروسة بالمناثر والمنابر . نريد عاصفة للبعث تهز المشاعر هزا. نريد هبوباً للشمائل . نريد نبلاً تاريخياً تتفتح له الروح فيرفع الرأس ويثير الدم . لقد كانت لنا امبراطورية واسعة ضمت بين لابثيها الوانا من الشعوب قد انتقلت بتركبتها وما في تلك التركيبة من سم ودم ، وحلو ومر ، وطبخت لنا انواع الطبخ ، بل طبخت لنا احمض ما عندها . فلنهرق تلك المواعين وما فيها من الطعام غير السائغ ونزين المائدة بكل طرفة صغيرة. لقد كانت بيننا شعوبية تنزع الى ماضيها وتحن الى اهلها، وحاولت مراراً تحويل الماء عن نهرنا ودست ما دست في طعامنا الادبي ، ذلك الطعام الذي تناوله بعض المستشرقين واستغلوه. فلنجمع المعاجم التاريخية ونصهرها ثم نفرغها سبيكة خالصة . اجل يجب ان نشذب الشجرة ونقلم اغصانها ونمسح ما عليها من المن حتى تصبح خضلة ممرعة . ان رسالة العربي بما فيها من جمال وحق وخير كانت رسالة الكمال للانسانية ، واذا كانت الشؤون لم تمكن المؤرخ العربي في الصدر الاول ان يضع تاريخاً قومياً متصل الحلقات فجاءت ويا للأسف كتبنا التاريخية باتجاهات غير متناسقة الاهداف وبقيت السلسلة غير متصلة . اما وقد بلغنا الرسالة ورجع العالم في يومنا هذا الى الاعتزاز بالقوميات، اصبح من المحتم علينا الرجوع الى ثروتنا التاريخية من المثل والقصص وحتى الاساطير حتى نلم بطرفي السلسلة ونفرغها

كاملة الحلق، ومن لا اول له لا آخر له.

هذا من جهة ومن جهة اخرى كان الكثير من محلاتنا اخرس التاريخ لا شيء ينطقه، وقد اصبح اليوم ذا تاريخ ناطق له الصوت والصيت. وربما يكون المستقبل لمثل هذه النواحي وما سيتم فيها مثل الصحراء الكبرى والهفوف الى ما احده التجدد والدثور، فاننا اذ تناولنا كتب البلدان او كتب المسالك والممالك نجد الالوف من القرى والمدن قد طويت واذا بحثنا عما جد وجدنا الالوف من النواحي المعمورة حديثا تحتاج الى النشر والتخليد .. ان في التاريخ المسطور رجالا ووقائع وروائع اضاعت لنا الطريق . وفي التاريخ غير المسطور رجال ووقائع لا يجمل بنا أن نتركها مطوية.

اللوحة الثامنة والثلاثون

1957

النهضة العربية

هب العرب، ورفرفت اجنحتهم وتحدثت الخوافي والقوادم، فكان لهم النهضة الاولى النابعة من واقع الامة وامكاناتها آنذاك غير مستوردة وغير منحولة. وقد تهيأت اسبابها في الليل الحالك حتى اذا طلع الفجر وتلاه الضحى وتلاه الظهر طافت الشمس فكان العصر وكان الغروب وعاد الحلك ماذا رداهه على الامة العربية، حتى اذا غزا نابليون القاهرة وحتى تم فتح قنال السويس بدأت اسباب النهضة الثانية تتجمع وأرجو ان يتكامل التجمع بالبلوغ والنبوغ، وها أنا احاول ان ارسم بكلمتي هذه تثمين النهضتين:

بدأت النهضة الاولى بالايمان باهدافها والاخلاص لذلك الايمان ، ولزاما لكل نهضة الايمان الصلب والاخلاص لذلك الايمان الذي ثمنه القائد الاعظم النبي (ص) «لو جمعوا الشمس بيمينى والقمر في شمالي على ان اترك هذا الامر ما فعلت». وكثيرا ما تكرر في القرآن المجيد والحديث الشريف ذكر الايمان والاخلاص . اذا عرفت ذلك وعرفت ان العرب ما كانوا في عزلة عن العالم ولا هبطوا من الغيم ، انهم متصلون ومحبوكون سدى ولحم بمن سبقهم منهم، والسابقون شبه عائلة واحدة تقدم بعضها في الزمن. ان تفكيرهم واسباب التفكير متجانسة لا يؤثر على ذلك اختلاف البلدان والاحضان والمرضعات.

لقد كان الساميون ومنهم العرب يمجون من الجزيرة الى البلاد المجاورة فنشأت من ذلك بركات كثيرة خلفت تركات كبيرة من تصوير وتطوير . وكانت للعرب تجارة في اليمن والحجاز وبصرى وتدمر والفرات ، تلك الممرات والمحطات

التجارية على طريق القوافل. وللتجارة نظام خاص يؤثر كثيرا في حياة الامم ، وان التاجر كان رائدا سيارا يخاطب ويرافق ويتصل بعقول وعادات وانفعالات مختلفة ويرجع الى قومه بمدرسة عما سمع. وكانت للعرب امارات وحكومات تجاور الفرس والروم والاحباش ولهم مع الجميع سفارات وتعامل رسمي واتفاقات وفي السياسة قوة لحياة الامم تحصل في تبادل الممثلين ، وفي الصداقة والعدواة . وعدا ذلك فقد اشتبك العرب بحروب وغزوات مع الفرس والروم تلك الحروب التي كسرت السدود وهتكت الحدود، وكانت تدفع الجماعات العربية وتحفزهم للغلبة، وفي ذلك ما فيه من شحذ للهمم . وكان الادب منذ اول الدهر يصب الحياة في نفوس العرب صبا فكان فيضا للعواطف النبيلة وكان ينور العقول ويصقل الازهان. ان البلاد العربية والحياة فيها تعاونت على انعاش الادب وتغذيته. اما البلاد فهي الجزيرة الواسعة الآفاق ورملتها الذهبية وهدوءها المملوء بالجلال وسماؤها الصافية ونجومها اللامعة وقمرها بنوره الازرق وشمسها الساطعة بالضوء الباهر ، هذا الكون الجميل وما يتصل به من وحي ولطف قد انعش الأدب واصحابه.

اما الحياة في تلك البلاد فانها حياة تأمل وتفكير لان العمل في تلك الجزيرة بسيط والكلفة قليلة والاندية تتلمع بالادب، ففي كل مجمع ما يشبه المحاضرة ، وفي كل موسم كانت المناسبات متوفرة لحركة المواهب ولأجل حركة المواهب نشأ أدب المناسبات. وكانت البيوت تتعاطى أدب القصة تتعش الشيوخ وتتلذذ عليه الاطفال، فكانت القصة اجمل حديقة في البيت العربي. واذا اردت ان تعرف مبلغ اهتمام العرب بالقصص فتصفح معجزهم الخالد القرآن، كم وكم حوى من القصص . ان للدين الاثر الكبير في حياة المجتمع واذا كان الدين لزاما لنظام الانسان ولضميره فهو بهذا الاعتبار يكون لابن البادية اكثر لزوما لان حياة البادية تحتاج الى تلك القوة وذلك الانتعاش.

ان الناشئ في ذلك الدو الموحش والقفر المملوء بالاشباح والاخيلة احوج ما يكون الى الدين وان السالك في تلك السباسب والنفوذ احوج ما يكون الى الصراط المستقيم.

هذه جملة اسباب توافرت للعرب القدامى فحفزتهم الى النهضة الاولى والسير قدما الى الدنيا الملتاعة للفضيلة والى العالم المحتاج للخير ، لقد شعر العرب المبتوثون

انهم باشد الحاجة الى الوحدة وشد الروابط فبلاد اليمن تريد العزة والحرية ،
ووصل الحجاز الى درجة التكامل وبلوغ سن الرشد، وتململ العراق وجاشت
الجزيرة من اقصاها الى اقصاها تريد تجدد زهو الدنيا وترغب ان تنعش الانسانية

هذه جملة من اسباب النهضات القديمة تجمعت لنهضتنا الاولى نابغة من واقع
الامة وقدراتها فهل تجمعت لنهضتنا اليوم اسبابها؟

لقد طال زمن الفرقة وعصفت بنا شتى الرياح وحملت الجوانح الهم الكبير، فهلا
قفزنا على المحن والعقبات ماشين الى العالم المزهو الذي ننتظره ومنتظرنا...!
هلا نرى حملة الهموم والآمال الكبيرة يتوحدون مشفين على اوطانهم ان تكون
محرومة ! متى ؟ متى ؟ متى ؟ متى تنتفض الامة المبعوثة لتجميل دنيا العرب ؟ها
قد اشرفت الشمس على المواكب او كادت ومشى المجد بشموعه . واذا تقدم
نهضتنا الاولى الاستقلال المزيف والسلطان الموقع في عهد اللخمين والمناذرة
والغساسنة وقضاة ولكن دال كل ذلك وجاءت دولة التوحيد بالتأسيس في الحجاز
والسلطان في دمشق والامبراطورية في بغداد والاستقلال في الاندلس والحكم في
القاهرة . وها نحن اليوم نريد لنهضتنا الثانية ان تطوي الاستعمار الجديد والقديم
نريد ان نضع القاعدة الراسخة لتحويل الجماهير الى الوعي الكامل والاحذ بيدهم
الى نواحي النشاط وتنويرهم بالتيارات التاريخية ومنطلقاتها ، ولا بد ان تكون
التعبئة شاملة للمدينة والقرية والريف الحبيب، ونابغة من واقع نهضة تدفع الى
المزيد من الهز وان تكون منبعثة من الواقع الاجتماعي والواقع الاقتصادي
والواقع الثقافي والسياسي ولا بد من رسم الخطوط الواضحة للنهضة التي تريد ان
تكون من روح الامة وسائر مقدراتها.

اللوحة التاسعة والثلاثون

1961

التصميم العربي

-1-

ثلاثون رجل فقط صمموا الحرب الجزائرية التي ادهشت الشرق والغرب طيلة سبع سنوات، ودوخت جبابرة فرنسا وانزلتها من عرش عظمتها صاغرة. نعم ، بثلاثين رجلا ومئة باون بدأ التصميم الذي أطاح بمئات الالوف من القتلى ، وما يربو على اكثر من مليون جريح وصرف مئات الملايين من النقود وصب آية عالية لبطولة العربي وتصميمه.

استمع لثلاثة ابطال جزائريين اسطوريين يتحدثون بلغة فيها الكثير من المرارة والكبير من الامل المشع يظهر لك نضج الزعماء وعملهم على بناء مستقبل ضخم بالمفاخر .

لقد لمع من الثلاثين ثلاثة أحمد بن شريف قائد جيش التحرير في منطقة العاصمة للجزائر، ويوسف السعدي وعمار الوزاني . هؤلاء الثلاثة كانوا اخطر المجاهدين على الفرنسيين، ستة اعوام وهم يلعبون كرة القدم برؤوس الشباب الفرنسي و يرتلون اناشيد البطولة بزئير الاسود . وبعد نضال ست سنوات يقول الابطال وهم خلف الاسوار في السجن ووراء قضبان الحديد الغليظة في غرفة الاعدام المظلمة والمقصلة تنتظرهم . انهم يقولون بثقة وتصميم سننتصر ، ناظرين الى المستقبل بأمل هادئ كأن لم ينته بهم المطاف الى هذه القاعة الضيقة التي لا ينيرها غير نصف نافذة اشتبكت عليها قضبان الحديد. ان ابن مدينة الجزائر احمد وابن حي القصبه يوسف وابن وهران عمار الوزاني الذي عرف بانه العقل السياسي للثورة ، جلسوا للحديث قائلين :

برغم الظروف الحاكمة وموقف المستوطنين الاوربيين ومنظمة الجيش السرية،

اننا ننظر بلا حقد ولا غرور الى مستقبل وضاء مشرق . يقول احمد بن شريف ،وهو الوسيم الفارع ،يقول بابتسامة : اني منذ تسعة اشهر في غرفة الاعدام وقد شاهدت اثنين وعشرين شابا جزائريا بينهم سبعة من رجالي الخاصين ومن الضباط قتلوا امام عيني رميا بالرصاص وهم اسرى .

ويقول يوسف السعودي الذي ارهب الفرنسيين بانه اخطر مجاهد ظهر في بلاد الجزائر وقد كانت قنابله تنشر الموت في انحاء الجزائر ففي موقف واحد القى ثلاث قنابل قتلت احد عشر فرنسيا وجرحت خمسة وثلاثين وقد كلف قائد المظليين الجنرال «ماسوا» مئات الجنود للقبض عليه او لقتله فلم يتمكنوا منه ولم يزالوا حتى نصبوا له كمينا واحاطوا به وكان السعودي يبلغ الرابعة والثلاثين وهو مرح كبير الثقة بالمستقبل.

ويقول المجاهد الثالث عمار الوزاني الذي انهكه المرض يقول بلهجة العزوم : لقد بدأنا بثلاثين رجلا ومئة باون وها هي ثورتنا اليوم تهز العالم وترهب الملايين والوزاني يعد من القادة السياسيين المحنكين وكان عضوا في البرلمان الفرنسي.

من على منبر سجن «فريزن» الفرنسي وقف الاساتذة الثلاثة يلقون على مسمع الدنيا دروسا في التصميم والمضاء قائلين وشيكا تنحسر موجة العنف العارم ولا يكون المستقبل امتدادا لفضائع الماضي وهؤلاء الفرنسيون الذين اتبعوا اقدر اساليب القتل سيبدون الرغبة الخالصة في التعاون مع دولة الجزائريين الجديدة .

-2-

لقد كنت عام 1914 في شطرة المنتفق ويشتبك المتخاصمان من اهل المدينة «السناجر» وآل أبي «شمخي» ويصاب بطل من آل أبي شمخي فحملة اخوانه وهم يبكون .

وقد كان فيه رمق فقال لآخوانه لا تبكوا علي وامضوا في تصميمكم في المحافظة على المنفذ للشارع.. انه باب الخطر ولا تبكوا على من ذهب في يومه وهو اليوم الاغر سمعته يخاطبهم وقد كشطت الرصاصة جلدة ما بين عينيه وكان مخه يلوح من مقدم الرأس.

-3-

وفي ناحية من نواحي الشطرة اقطاعية تسمى «أم الحنطة» يقطنها جماعة من

عشيرة العبودة يرأسهم جار الله بن حسين وفي معركة مع جنود العثمانيين كان جار الله في مرقب مبني باللبن وهو الطابوق غير المشوي وبيده بندقية يصب رصاصها على الجيش ويشعر من قصف المدفعية بهذه تهز المرقب فيصمم على الدفاع ويركل المرقب برجليه قائلاً :

«اخساً» فان فوقك من لا يززع . اجل فوقك «أبو علي» وما أشبه موقف جار الله بموقف زعيم عربي اطلقت المدافع على البيت الذي هو فيه فمادت اعمدت البيت من شدة القصف فما كان من الزعيم دون ان يتناول سلاحه صارخاً : « قر يا بيت» انهم يريدون ميدي لا ميدك .